صاحبها ورئيس تحريرها
مدحة عكاش
MADHAT AKKACHE

الثقافة

مجلة ثقافية أدبية تصدر في دمشق

أيـــار
١٩٧٨

دمشق ـ ص.ب (٢٥٧٠) هاتف ٢٢٩٩٨٤

حركة التأليف

بقلم

رئيس التحريـــر

تتأرجح حركة التأليف بين النشاط والخمول . شأنها شأن سائر النشاطات الثقافية .

وعزيز على المرء ان يقول أن حركة التأليف في هذا القطر قد أصابها في هذه الفترة بعض من الخمول وان كان هناك من كتب تظهر بين الحين والحين وعلى نطاق محدود فهي لا تتعدى النتاج الشخصي المحلي .

ولنا كبير الامل في أن يكون الموسم القادم موسم نتاج وعطاء وبخاصة ما نحن بحاجة اليه سواء من تراثنا المجيد او ترجمة ما يصدر حديثا من كتب فكرية لا ينقطع سيلها في الامم الاخرى لاننا اكثر ما نكون حاجة للاطلاع على المذاهب الفكرية المعاصرة في وقت تفتحت فيه اذهان الناس على كل قيم وجديد .

ونحن بهذا لا ننكر سائر الفنون وما تتمتع به من حظوة ورعاية لا بل نقف منها موقف المؤيد المشجع الا ان هذا لا يعني ان نفتح اعيننا على لون من الوان الابداع ونغمض عينا عن بقية مجالات الابداع انها دعوة من القلب لسائر مفكرينا ادباء وشعراء وكتابا .

شعرنا المعاصر..
إلى أين...؟

دحام عبد الفتاح

ان من يتابع مطالعة الجرائد والمجلات الادبية تبهره ظاهرة تتزايد باستمرار ، هذه الظاهرة هي كثرة الادباء والشعراء منهم بشكل خاص ، وبالتالي تزايد الانتاج (الشعري) تزايدا يلفت النظر . وان المتتبع للحركة الادبية في سورية ــ مثلا ــ يلمس هذه الظاهرة بشكل واضح ، فلا تكاد تخلو مدينة أو قرية في القطر امتدادا من (عامودة) في أقصى الشمال الشرقي وانتهاء بدمشق العاصمة حيث يتدفق العطاء (الشعري) من اكثر من ينبوع (شعري) . فما هي دلالات هذه الظاهرة ياترى؟

صحيح أن المستوى التعليمي قد ارتفع ، وان عدد الجرائد والمجلات الاسبوعية والشهرية قد تزايد بالاضافة الى وسائل الاعلام والنشر ، وقد يكون كل ذلك من العوامل المساعدة ولكنها حتما ليست بالرئيسية للظاهرة .

ان الرغبة في الكتابة عند الشباب المتعلم لا تنكر ، وخاصة في مقتبل العمر وبعد المامه بأدوات التعبير اللغوي فكل الشبان يتطلعون الى الشهرة ، ويسرهم ان يروا انتاجهم منشورا على صفحات جريدة أو مجلة فيقرؤون أسماءهم منعوتة بالشاعر .. أو القاص .. أو .. ، ولتحقيق هذا التطلع يندفعون الى الكتابة ، توفرت أسباب العطاء عندهم أم لم تتوفر ، بالاضافة الى وجود نوازع نفسية عند بعضهم ، مكبوتة في عالم اللاوعي ، فيعالجونها بما يسمى (بالتنفيس) ، وبعض المجلات التي تنتظر موادا ــ كيفما كانت ــ تلتقف هذا الانتاج ، وتملأ به أعمدتها الفارغة ليتم اصدارها في الوقت المحدد ، وبالتالي بيعها بالسعر المحدد ، ويتقدم العمر الزمني والفكري بهؤلاء الشبان فيتوقف قسم منهم عن العطاء .. ويتابع قسم آخر (مشواره) ، ويراجع الشبان باكورة انتاجهم (الشعري) ليقفوا ساخرين من ترهات سموها في يوم ما (شعرا) .

يقول أوسكار وايلد : (كل انسان يستطيع كتابة قصة ذات ثلاثة مجلدات كبار ، ولا يتطلب الامر أكثر من جهل مطبق بالحياة والادب) واذا ماعدنا وتفحصنا هذا العطاء (الشعري) من خلال ظاهرة الكثرة والتزايد فأول ما يدهشنا فيه تنوع غريب وعجيب في الشكل والمضمون والاسلوب والهوية حتى عاد الشعر فيه بلا وجه ولا هوية (قديم كلاسيكي .. ، حديث معاصر موزون ، منثور .. ، مقفى .. ، طليق) امواج متلاطمة من الاسماء والرموز والمصطلحات تحت اسم الشعر ،

ويتحزب (الناس) .. ويكثــر الخلاف والاختلاف . ولكن كل ذلك حول الشكل والاتجاه أما المضمون فكلنا متفقون عليه لاننا ـ والحمد لله ـ ندرك جيدا (رسالة الشعر والشاعر) !

نعم ..! لقد اختلفنا ، واتفقنا ، لكننا أيضا غفلنا او تغافلنا هوية الشعر الحقيقيــة ، وجوهره كجنــين موطنه خفايا النفس المجهولة والتي لم يكشف بعد علم النفس الا بعضا منها . فما هو الشعر ؟

لو طرحنا هذا السؤال على كل شعراء القطــر ، وطلبنا منهم تدوين أجوبتهم ، ثم قارنا الاجوبة لهالنــا عــدم اجتماع شاعرين على تعريف واحد ذي أبعــاد متناسبة مع كل ما تشتمل عليه التجربة الشعرية مــن عوامل وأبعاد .

فما هو الشعر ؟ وماهي طبيعة التجربة الشعرية ؟

للاحاطة بأبعاد الاجابة على ذلك لا بد لنا أن ندرس بعمق عملية التكوين الجنيني للشعر ، ثم عملية المخاض والولادة عند الشاعر ..، ولا بد أن نساير هذا المخلوق ونواكبه في عمق موطنه النفسي .

كان العرب في العصر الجاهلي يعتقدون أن لكل شاعر شيطان يلهمه الشعر ، وكان هذا الاعتقاد صادرا عــن قناعتهم بأن الشاعر انسان غير عادي ، وهم على حــق في ذلك فالشاعر فعــلا انسان غير عــادي ، كمــا كان (سقراط) يعتقد أن الانسان الشاعر وسيط بين شيطان علوي القدرة والآخرين ، يستلهم خواطره الشعرية من ايحاءاته ليفرغها في قلوب الناس من حولــه . ثم جــاء العصر الحديث ، عصر الاكتشافات العلمية ، وخاصة علم النفس ليسلط الضــوء الكاشف علــى الشعــر والشعور في عمــق النفس البشريــة ، وعلــى ذلــك (الشيطان) الموحي .

ولما كان الشعر عطاء نفسيا في تكوينه الاول ، ينتج عن شعور انساني معين في موقف نفسي معين ، راح علم النفس الادبــي يبحث في تلك الســاحــة عن التجربــة الشعرية عملا نفسيا وعقليا ، عالمه اللاشعور الباطني مثلما عالمه الشعور والعقل الواعي .

يلعب اللاشعور دور الشــبكية في عملية الرؤيا ، فتنعكس عليه كل تلك الفوائض المتجمعة من النوازع المكبوتة في ذات الانسان والتي تشكلت نتيجة مواقف معينة ومتعمدة خــلال فترات من العمر قد يكــون امتدادها منذ الطفولة الاولى والى مــا قبل انعكــاس الصورة بفترة قصيرة وجاء تراكمها في النفس نتيجة كبت فرضته اسباب قاهرة لا تلبث ان تملع في اللاوعي كفكرة مكونة بذلك اللمعان شعورا يأخذ أبعاده على حين غرة من الوعي ، او عند تلمس اي منفذ ـ مهما بلــغ صفره ـ في حجرة الكبت النفسي ، والى ذلك اشار البروفسور « لالو » بنظرية « الادخار والطاقة » .

وقد درس « فرويد » هذا الموضوع تحت عنوان « العلاقة بين الشاعر واحلام اليقظة » في كتابه « تفسير الاحلام » فقال : « ان ما يفعله الكاتب شبيه بما يفعله الطفل في لعبه ، فهو يخلق عالما خياليا لا وجود له فــي الواقع ، ثم يؤمن به ، فالرغبات المكبوتة هي القــوة الدافعة الخالقة لهذه الخيالات ، فكل خيال منها يحقق رغبة لم تتحقق في الواقع » . ويمضي في تفسيراتــه النفسية للتجربة الشعرية حتى يصل الى النتيجة التي يقررها بقوله : « ان النوازع مكبوتة في اللاشعور لسبب او آخر ، فليســت تستطيع الظهور الا في غفلــة مــن الشعور ، وعندما تظهر تفرغ شحنتها على شكل رموز هي بدايات العمل الفني » .

ان هذا الشعور الدافع في عمق الذات كان معروفا عند العرب كظاهرة ـ دون تفسير ـ .

وما لاحظته تلك العجوز المنفردة في الديار مــن (جرير) وهو يرغي ويزبد ، ويقوم بحركات غريبة ، فظنته عفريتا او مجنونا ، وراحت تصرخ وتستنجــد حتى أقبل القوم وتبينوا جريرا على عهده حين يقــول الشعر فطمأنوها . أقول مالاحظته تلك العجوز فسره « نيتشه » بقول : « تلمع الفكرة في نفسي فجأة كالبرق ويكون هذا اللمعان حتميا لا اختيار فيه ، ولا حيلــة لدفعه ، وعندها اشعر بنشوة عظيمة ، وتوتر عصبــي شديد يخفف منه أحيانا انسياب الدموع من عيني » .

تحرك الفكرة في اللاشعور يحدث اذن على شكل

لمعان خاطف ، وهيجان نفسي يصحبه توتر عصبي يهز الذات ، ويخفف منه ــ أحيانا ــ انسياب الدموع اذا لم يجد متنفسا اخر .

يقـول « سـتندال » : « أنـا اكتب مسـيرا ، وبسرعة ، وعندما تمـر الصورة بعقلي يسنجلها قلمي انسى بعد ذلك كل شيء كتبته » .

لقد كشف لنا علم النفس عن بدايات تكوين العمل الادبي ــ عند فرويد ــ على شكل فكرة تثير في اللاشعور احساسا معينا لا يلبث ان يدخل ساحة العقل الواعي ــ عند ستندال ــ ، ثم يضفي الشاعر اليه كل خبرته. وأدواته اللغوية والموسيقية لتأتـي الصورة محكمـة الصياغة والبناء من كافة الجوانب ، وهذا ما قصده بعض نقاد العرب القدامى عندما قالوا: «الشعر صناعة» .

وعلى هذا فليس الشعر عملا لا شعوريا محضـا كما انه ليس عملا عقليا محضا ، انه ولادة لامتـزاج النفس والعقل معا ، والشاعر الحقيقي هو من يخلص بوعيه في صياغة الصورة المنبعثة من اللاوعي اخلاصا يفوق كل اخلاص بشري . والشعر الحقيقي هو الذي يأتي نتيجة هـذه التجربة ، وأي شعر لم يمر بهـذه الديناميكية هو شعر مزيف مرفوض لانه لم يشتمـل على الحدث النفسي والفكري . وبهذا الخصوص يقول الدكتور « غنيمي هلال » : « غاية الشعر الوقوع على التعبير الايحائي الكامل للكشف عن حالة من حـالات النفس في صورة وجدانية » .

بعد هذا العرض السريع لديناميكية التجربـة الشعرية ، ولمقتطفات من أراء بعض العلماء المشاهير في هذا المجال ، اعود فأسأل : كيف يمكننا ان نتبـين اشتمال القصيدة الشعرية على الحدث النفسي والفكري ومرورها بديناميكية التجربة الشعرية ؟!

أجاب على هذا السؤال علم النفس التحليلي في مذهبه النقدي للنصوص الادبية عندما اتخذ مـن علم الجمال وعلم النفس الادبي اسلحة بعيدة الاثر في هذا المجال فأكد على أن اهم ما يميز الشعر من اللا شعر هو صدق التصوير والايحاء ولكليهما مستلزماته وأدواته .

وعلى ضوء هذا الفهم للتجربة الشعرية نتساءل :

على أية ساحة تقع ظاهرة التزايد الخطير في عدد شعرائنا المعاصرين ؟

وباتجاه أية قمة او منحدر ، يصعد او يهبـط شعرنا المعاصر دون هوية ؟!

وقبل كشف الحسابات ، واعادة النظر في أنفسنا ــ كشعراء ــ ، وفي انتاجنا ــ كشعر ــ لنضع كـل شيء وبصدق في مكانه المناسب يجدر بنا ــ ولو مـن باب اللباقة وكرم الاخلاق ــ ان نسمع « جوته » العظيم يصف نفسه في حالة الكتابة وهو يقول : « اكتب احسن انتاجي في حالة نوم حالمة هي أشبه بحالة النائم وهـو يسير » .

ــ فيا نقادنا : وعليكم تقع معظم المسؤولية لانكم لم تتفقوا بعد على تثبيت معالم هويته بالحبر الازرق .

ــ ويامحرري جرائدنا ومجلاتنا الادبية !! ، وانتم مسؤولون بطبيعة عملكم ــ العين المراقبة ــ عن اكثر (الشطحات) في حياتنا المعاصرة ولا سيما تلك التـي ينعكس مردودها على سمعتكم الوظيفية كمحررين ..

ــ ويا طوفان (الشعراء) في الـوطن الملهـم .. وانتم مطالبون بالصدق في التعبير والاخلاص في التصوير مع انفسكم .. ،

نسألكم جميعا فأفيدونا : هل انعم اللـه ــ جلت قدرته ــ على جيل النصف الثاني من القرن العشرين ، فنفخ فيهم من روحه ، فجاؤوا كلهم شعراء ؟!

وحتى في هذه الحالة ، وعلى هذه النعمة الربانية يجب ــ ربنا لا تؤاخذنا ــ ان نرثي للشعر ، ونقول : ياديوان العرب عليك السلام .. ! فقد كنت في يوم ما نفخه (شيطان) عبقري في قلب شاعر القبلية ، وامـا اليوم فقد فقدت المسرحية كل قيمتها لان الجمهور كله تحول الى ممثلين ، ولم يعد في (الصالة) مشاهـد ، ليحكم لها او عليها .

عاموده دحام عبد الفتاح



رباب شهبندر

قصة معربة عن الفرنسية

كنت آنذاك في الخامسة من عمري · حين البستني أمي ثوبي الاحمر الذي ارسلته لي خالتي هناء قبل أسبوع كنت جالسة على الارض وبجانبي لعبتي قرب المقعد الجلدي الاخضر الكبير ، أتأمل نار المدفأة ، كان المقعد فارغا ، وهذا ماجعلني ارتاح لان أبي كان يجلس عليه بعد عودته من مكتبه ، كان يستلقي وهو يتابع زفراته ·

كان قد مضى على غيابه آنذاك أكثر من سنة ولكنني كنت أشعر أنه لم يمض على ذلك شهر واحد · اصغيت بلهفة الى وقع خطوات والدتي وهي تصعد الدرج، دخلت بسرعة الى غرفة الجلوس وضعت ثوبها الجديد الازرق الذي اشترته مع سترة حمراء لي تتمشى مع ثوبي الاحمر ·
نظرت أمي في ساعتها وهي تزوي ما بين حاجبيها قائلة :
ــ لبنى ــ أليست هذه سيارة والدك ؟

نظرت لتوي الى الشارع ·· وأجبتها : لا ياأمي انها السيارة القديمة التي تملكها جارتنا هيفاء ·

هبت أمي الى المطبخ لترى الساعة الكبيرة هناك ولتتأكد من أن ساعة يدها مضبوطة ·
ــ أرجو أن يأتي عما قريب ···

كانت تتحدث بصوت هامس وكأنها تتحدث الى نفسها ·
ــ فقد تأخر عشرين دقيقة ·· واذا لم اذهب الان ·· فأنني
قالت هذا وتأهبت للذهاب توا ···
ركضت لامسك بيدها ضارعة :
أماه ··· خذيني معك ··

ومن جديد عقدت ما بين حاجبيها مستاءة وكأن طلبي هذا قد ضايقها ، أجابتني ببطء وهي تلفظ كلماتها جيدا : هل نسيت (يالبنى) أن والدك سيأتي لاصطحابك الى شقته الجديدة ، تذكري ما قاله لك البارحة وهو يحادثك هاتفيا . ستتنزهان جيدا او ستذهبان الى السينما او ستتجولان في مدينة الملاهي أو في المعرض ·· أنا متأكدة أن أباك سيعمل كل ما في وسعه ليجعلك سعيدة وستتصلين كثيرا ، وهذه فرصة لك لتريه أليس كذلك ؟
قلت نعم ··· لا ··· لاأدري ·· سأحاول أن لا أبكي

وقلت ايضا : ماما خذيني معك أرجوك ·· أريد أن أكون معك ··· اسمحي لي أن ابقى معك اتوسل اليك ···
وأمسكت بثوب أمي بكل ما في يدي من قوة ·
كانت أمي تفك أصابعي واحدة تلو الاخر لاترك ثوبها قائلة

ــ يا عزيزتي سأقابل صديقة لي وسنتحدث فيمايخص الكبار ، وهذا سيضجرك كثيرا ·
كنت أعلم أن الزيارة ستضجرني ولكنني تابعت رجائي ·
ــ اريد أن أبقى معك ·

كيف سأشرح لها انني خائفة ··· وأنها حين تذهب الآن فلن تكون هنا حين أعود من جولتي مع والدي ، وقد حدث هذا مرة حين عدت من زيارتي لجدتي ، لعبت آنذاك طوال بعد الظهر مع اصدقاء صغار ، ولكن عندما اعادتني جدتي الى المنزل مساء لم يكن والدي هناك ، ولم يعد بعد ذلك الا في ايام الجمعة حين يسأل علي من الباب ··
ماذا لوفعلت أمي نفس الشيء ؟··
أمي اتوسل اليك ···
زفرت أمي بضيق :

ــ لبنى ــ يا حبيبتي انت تدركين جيدا ···
يقولون أن الام تحزر كل ما نفكر به ··· وهاهي تقول لي:

ــ أنت تعرفين جيدا أن أمك لن تتركك أبدا ، يجب أن تكوني عاقلة ···
قلت في نفسي : لا لست عاقلة ··· انني خائفة ···
وتابعت أمي : تذكري يا حبيبتي انه احيانا عندما لا يتوافق الآباء جيدا ، وعندما يتشاجرون فان من الافضل لهم أن ينفصلوا ويعيش كل منهم بمفرده ، ولكن الفراق لايمنع الاب من رؤيته ابنته ، واصطحابها الى بيته ، فالجمعة الماضية لم يصطحبك والدك لانه لم يكن قد وجد شقة بعد ، لقد كان في الفندق ، ولن تكوني سعيدة بذهابك الى غرفة بالفندق أما الان فقد استقر في شقة وسيصطحبك كل جمعة وستصبحان سعيدين مع بعضكما بعضا .

في هذه الآونة علا صوت نفير متقطع في الشارع عرفته انه نفير سيارة والدي ·· يجب أن اذهب معه ···

قالت أمي : انه هو اذهبي بالسلامة ، ستقضين معه نهارا سعيدا ٠

وتضمني بين ذراعيها بحنان،كانت قبلاتها ناعمة كشعرها الذي داعب جبيني ، يجب ان اذهب ٠ توجهت الى الباب وانا أجر قدمي، التفت الى الوراء ثلاث مرات على الاقل لارى أمي حتى اخر لحظة ، واشترط عليها أن تكون هنا حين أعود٠٠٠ كنت خائفة ، خائفة جدا ولم أكن استطع أن اعبر لها عن مخاوفي هذه ٠

قالت لي : اسرعي ياحبيبتي لاتدعي أباك ينتظرك طويلا ٠ فتح والدي باب سيارته واجلسني في المقعد المجاور له قائلا أهلا ياهرتي الصغيرة ٠٠

هل انت مسرورة جدا لانك ستكونين معي طيلة فترة بعد الظهر ٠٠

مال ابي ليقبلني كنت سعيدة انعم برائحتة الخاصة التيهي مزيج من عطره المفضل ، وسجائره وصوف سترته ٠
سألني : هل أمضيت اسبوعا جيدا ؟ هل تريدين قطعة من السكر ؟
أجبته نعم ياأبي ٠٠ كان اسبوعا جميلا وتناولت من يده قطعة السكر واخذت انزع القشرة عنها ، كنت احب كثيرا هذا النوع من السكر المكون من الحليب والشوكولا ، لقد اصطحبتني أمي عدة مرات الى دار جدتي ، وقالت انه يجب ان تجد عملا ٠
أجاب والدي :

هناك مكان يقدم فيه الناس طلباتهم لعمل السكرتارية كما يأتي أصحاب الاعمال لينظروا في هذه الطلبات ٠ ولم نتحدث بشيء اخر حتى اجتزنا الريف ودخلنا في اطار المدينة اجتزنا ساحة الامويين وساحة النجمة ، كان والدي كان قد سكن في السبكي ٠٠

قال : اعتقد أن سكني الجديد سيعجبك وخاصة لان بقربه حديقة الالعاب الاطفال وبامكانك اذا رضيت والدتك أن تأتي لعندي منذ الخميس وتبقى حتى مساءالجمعةستنامين على الاريكة في غرفة الجلوس ، هل تحبين هذا ؟

أومأت برأسي دلالة الرضى ، لكن والدي لم يرني ٠٠ ولذلك فقد كرر سؤاله ٠٠

ولم أكن بدوري اعلم اذا ما كنت فعلا ارغب في ذلك او اذا ما كانت والدتي توافق عليه ٠٠

توقف والدي في مكان تحتشد فيه السيارات ٠٠وكانت المنازل كثيرة متراصة بجانب بعضها بعضا ، قال والدي :
ها قد وصلنا الى شقتي في البناء المجاور ٠٠

كانت الشقة في الطابق الاول ، وكانت غرفتها صغيرة بالنسبة لمنزلنا في دوما حيث اقطن مع والدتي ٠٠ لكنها كانت انيقة جدا وواسعة والاثاث كان رائعا ولامعاوجديدا٠

سألني والدي : هل اعجبك هذا الاثاث فقد اخترته بعناية ٠

قلت : نعم ــ بحركة من رأسي ــ ٠

دخلت المطبخ وفتحت الثلاجة ، فلم اجد فيها سوى زجاجات الحليب والبيرة ، كان والدي يضحك قائلا : لم أهيء ادوات المطبخ بعد ، لذا افكر ان نتناول طعامنا اليوم في المطعم ، هل توافقين ؟

أجبت ــ بنعم ــ ٠

في الماضي عندما كان الجو يصحو يوم الجمعة كانت امي تطهو الخضار في المطبخ بينما كان والدي يشوي اللحم في الحديقة من اجل الغداء ، فكرت ان لا يمكن لنا ان نعمل ذلك في مثل هذه الشقة ٠ امسك والدي بزجاجة البيرةوفتحتها له بمفتاح الزجاجات فقد كنت منذ مدة طويلة افعل ذلك وكأنني كبيرة وكذلك كنت اشعل له سجائره ٠٠ داعب شعري قائلا :

انك تكبرين مع الايام وتصبحين اكثر قوة ، هل تريدين كأسا من الحليب ٠٠٠

قالها وهو يصب لي الحليب بينما ملأ لنفسه كأسا من البيرة ٠

وتابع : سنحمل شرابنا الى غرفة الجلوس وسنتحدث ونحن جالسان على الاريكة ٠٠

ماذا تريدين أن نفعل اليوم ؟

اجبت : في الاسبوع الماضي ذهبنا الى السينما لرؤية احد افلام الاطفال ، وفي الاسبوع الذي قبله ذهبنا الى الخالة هناء ولعبت في حديقتها وقبل ذلك ذهبنا الى حديقة الحيوان والجمعة التي سبقت ذلك لم ار والدي لانني كنت عند جدتي ولم يكن قد مضى وقت طويل على تركه منزلنا فيدوما كنت ابتئس كثيرا حين افكر في ذلك ٠ ولم اعرف ماذا اريد كل ما اعلمه ان والدي سيصطحبني حيث اريد لان امي هي التي طلبت منه ذلك ، اما انا فلم اكن شخصيا راغبة في اي شيء ٠٠ كانت لدي بالوقت نفسه فكرة الذهاب الى مدينة الملاهي ٠ وافق والدي وقال انه لم يذهب اليها منذ مدة طويلة ٠٠٠ وطلب مني الاسراع في شرب الحليب لنذهب فورا ٠

حين كنت في السيارة شعرت بالسعادة الحقيقية ٠٠٠٠

لم تكن بعيدة جدا فقد وصلناها بسرعة وكان والدي يشد على يدي ٠٠ كانت فيها كل وسائل التسلية: ترويض الخيول ومختلف الالعاب الكبيرة العالية التي تدور ، والمراكب التي تسير في البركة ٠

قلت لوالدي :

أمي تقول بأن هذه الالعاب تسبب الدوار ، وخالتي هناء تخاف كثيرا من ركوبها اما جدي فيقول بأنها تسبب مرض القلب ٠٠٠

أما بالنسبة لي فكانت شيئا محببالايسبب مرض القلب ولا الخوف ٠٠ قلت هذا لوالدي فأجاب : هذا لانك شجاعة جدا ، هل تحبين البوظة ؟

أجبته جدا جدا ٠٠

اشترى والدي واحدة من البائع ، وجلسنا على المقعد ريثما اكلها ، كانت من الفريز وهي لذيذة جدا ٠
سألني والدي : هل ابتدأت امك بتدريبك على السباحة ؟

قلت : سنذهب الى المسبح في غضون ثلاثة اسابيع ٠
كنت افكر : اه لو كان أبي وامي يعيشان معا ، فقط لو كانت امي في زيارة خالتي هناء ٠٠ او لو امضت اسبوعا عند عمتي الهام في الزبداني ٠ كما فعلت في الاسبوع الماضي ٠٠ حين بقيت وحيدة مع والدي واصطحبني في نزهة معه ، وعندما عدنا الى المنزل وجدنا امي قد عادت لتوها سألها والدي : هل انت هنا ٠

سألها والدي هل انت هنا منذ مدة طويلة ٠٠ فقالت منذ ساعة ٠٠

رميت ورقة البوظة والعود الصغير في سلة مجاورة ٠٠ وعدت الى المقعد سألت والدي : هل نستطيع ان نأخذ المركب المائي وافق والدي وجلسنا في المركب متلاصقين شد حزامي وسار بنا في بطء في البداية ثم بسرعة اكبر فأكبر وارتفع بنا ثم هبط فجأة كان شعري يتطاير كم كان هذا رائعا ٠٠ اه لو انه يستمر دوما ٠

لكن فرحي انتهى حين قفزنا من المركب ٠٠ امسكت بيد والدي ، وكانت رجلاي مبللتين ٠٠ سألني والدي : هل تسليت يا حبيبتي ؟

قلت : اوه ٠٠ نعم ٠٠ نستطيع ان نبدأ دورا جديدا ٠٠ اليس كذلك ؟
قال : اذا كنت ترغبين بذلك فلا مانع ولكن لنغير قليلا ولنأخذ الان لعبة الخيول الدائرة ٠٠

ركب ابي معي مرة ثم وقف خارجا وهو يبتسم ٠٠ كنت الوح له وانا على ظهر الحصان ثم الزرافة ٠٠ بدأت اشعر بالجوع ، فاشترى لي والدي قطعة من الحلوى ٠٠ وبينما كنت اكلها اقترب اناس منا رجل وامرأة ومعها صبي يكبرني بقليل ، وفتاة تصغرني قليلا ٠٠

قال الرجل لوالدي :

أحمد لم نكن ننتظر مثل هذا المستقبل ؟
أجاب والدي : أترى ٠٠ والتفت الي قائلا :
لبنى هذا هو السيد علي نجار وهذه هي حرمه كانوا جيراننا قبل ان نقطن في دوما كنت صغيرة جدا انذاك ولن تتذكري ذلك ٠

كان اسم الطفلين علي وريمة ٠٠

سألت السيد نجار : كيف هي — عايدة — ٠٠ وعايدة هي امي —

قال والدي : هي بخير ٠٠٠
والتفتت الينا نحن الصغار قائلة :
بامكانكم ان تذهبوا الى الارجوحة ٠٠٠ وسأعطيكم نقودا لتركبوا — القلابة — ايضا ٠

ان احاديث الكبار لا تسلي الصغار ابدا ٠٠٠
قلت في نفسي : ان امي تقول هذا ايضا ٠
امسكت ريمة بيدي واخذ علي بيدها الثانية وذهبنا ٠

كنت اسمع السيدة نجار تتحدث عني كم هي جدية هذه الصغيرة ان الاطفال يضحكون باستمرار ٠
اجاب والدي : صحيح لقد تغيرت منذ طلاقنا ٠

قلت : لنسرع ٠٠٠

واسرعنا وركبنا اربعة ادوار في القلابة وتأرجحنا ٠٠ الا ان ريمة اكتفت بعد قليل وعادت الى امها ٠٠ واخيرا عدنا الى اهلنا ، جلست ريمة على ركبة والدها ٠٠ والتصق علي بأمه التي عانقته وقبلته في رأسه وجلس بينها وبين والده٠٠ كانت السيدة نجار وريمة التي عانقته وقبلته في رأسه وجلس بينها وبين والده ٠٠ كانت السيدة نجار وعلي وريمة اسرة كما يصورونها في الكتب القصصية او التلفزيون ٠٠ انهم معا طول الوقت ٠

أما انا فقد كنت وحيدة مع والدي ٠٠ لقد افترق والدي ٠ ٠وهما يسكنان في منزلين منفصلين فقد ذهبت امي في زيارة لصديقتها واصطحبنا والدي الى الحديقة وفي المساء سيعيدني الى امي ولن اراه بعد ذلك حتى الاحد المقبل ، ولن نكون معا ابدا ٠ ٠ان هذا محزن جدا ٠

أمسكت بيد والدي ، وانغمرت على صدره اقبله بقوة ... وجنون .

قال : ايه .. ماذا اصابك ؟

ضحكت السيدة نجار بينما كان علي يفرك رجليه في الارض .

خفضت رأسي .. لقد شعرت بأنني مندفعة للتصرف بحماقة انذاك .. ولم ادر كيف تصرفت .

قال السيد نجار اذا ما كنت احب الذهاب الى المدرسة اجبتها : انني سأذهب اليها حين تفتح وانني لن اذهب الى روضة الاطفال بل المدرسة الابتدائية .

وهنا بدأت ريمة تبكي وقال السيد نجار انه قد آن وقت العودة ...

ورافقتنا اسرة نجار الى المركب المائي لنبدأ دورا جديدا انا ووالدي قبل ان نذهب الى الغداء لكنني هذه المرة ـ وهذا امر مضحك ـ لم اجد في المركب ما يسلي ولا ما يضحك او ما يدعو الى الصراخ فرحا ... وعندما ارتفع بنا المركب الى الاعلى كنت ارى الاسرة تراقبنا .. كانوا جميعا متماسكين بالايدي .. وكانت حاجتي للبكاء ملحة جدا ..

ذهبوا بعد ذلك .. وسيعودون الى البيت ..

انتهى دور المركب وعدنا الى سيارة والـدي .. وفي الطريق تعثرت .. وتعلقت بركبة والدي لم اشعر بأي شيء يذكر لكنني بكيت ولم استطع التوقف عن البكاء .. امسك والدي منديلا ومسح بلطف المسحجة التي ظهرت في رجلـي قائـلا :

اطري .. لا يوجد شيء .. ولا يوجد دم ابدا ..

كنت اتابع البكاء رغم شعوري بأن الامر تافه .. ابكي لان كل هذا سينتهي غدا ..

اضطرب والدي وحملني بين يديه الى السيارة .... قائلا ـ هيا يا حبيبتي كوني شجاعة انت تعلمين انه يجب الا تبكي يوم الجمعة .

كان وجهه ضاحكا لكنه كان متألما في اعماقه .

توقفت عن البكاء حين وصلنا المطعم ، كنت متعبـة جدا ، تناولنا غداءنا ، وكان لذيذا لكنني لم اكن جائعـة بل كنت افكر بأنني سأترك والدي واتساءل : هل سيعـود لاصطحابي في الجمعة المقبلة ، وهل سينسى .. هل سأنقطع عن رؤيته الى الابد ؟

وبأنه ستمر ايام كثيرة قبل يوم الجمعة ..

وكنت مسرعة لانني اريد ان التصق بوالدي في السيارة وارغب في ان ارافقه من جديد الى شقته وعندما انتهيت كان لا يزال امامنا بعض الوقت قبل العودة الى دوما .. كنـت متألمة كثيرا بين دخلت شقة والدي ، ركضت رأسا الى الحمام وتقيأت على الارض كل ما اكلته على الغداء .

قال والدي سأعطيك شيئا يهدئك لقد تناولت غداءك بسرعة .

أعطاني قطعة من سكر النعناع مما جعلني ارتاح ، صحيح لقد اكلت بسرعة دون ان امضغ طعامي لم يوبخني والدي بل قال لي :

من الافضل يا حبيبتي ان تخبري امك بما جرى لك حتى لا تظن انني لم اهتم بك كما يجب .

المهم انك بخير ، ولن تشعري بألم في الليل طبعا .

كنت افكر بكتمان الامر عن امي حتى لا تحرمني من رؤية والدي في المستقبل ، ولكن المؤلم حقا ان يخفي الانسان شيئا عن امه .

كان والدي ينظف الحمام وقد حان وقت عودتنا .

سألني والدي من جديد اذا كنت مرتاحة .. فأكدت له أنني اشعر بتحسن كبير .

وفي الطريق الى امي لم نتكلم ابدا .. كنت افكر في اسرة النجار .. وصلنا دوما وامام المنزل الكبير عانقنـــي والدي وبادلته العناق من كل قلبي ..

قال : عسى ان تكون امك قد عادت .

فتحت امي الباب وهي تسألني بلهفة :

هل تسايت يا حبيبتي ؟ أجبتها نعم يا امي .. جدا جدا

أغلقت امي الباب بعد دخولي وترامى الى سمعـــي صوت سيارة والدي وهي تتحرك .

انها لمهزلة حيث اقطن في منزل امي انني اشعر بالغربة وبأنني لست في بيتي ..

اشعر وكأنني في زيارة لغرباء .. انه لامر مخز حقا وانا بحاجة الى البكاء ولكن يجب الا ابكي في يوم الجمعة .. هكذا قال والدي ...

انتبهت الى صوت امي : الا تنامين ؟

كنت بحاجة الى النوم وعيناي مغمضتين وانا اغـــير ثيابي انني انام الان وقد انتهى يوم الجمعة الجميل ... ويجب ان انتظر اياما كثيرة قبل ان اعود الى جمعة اخـرى وارى والدي ..

لكن امي هنا على الاقل ..

أما اسرة ـ النجار ـ فهي اسرة كاملة فيها الاب والام والاولاد كلهم معا بآن واحد .

عن الفرنسية ـ رباب شهبندر

مولد الرسول العظيم

عبد المجيد النجار

يطيب لي الحديث عن الجمال ... ويسعدني اللقاء مع الرجال
فما شأن الانام بلا عظيم ... وما طعم الحياة بلا جمال ؟
نبي العرب أنت عظيم قوم ... سموت بهم الى أعلى منال
ففي ذكراك دنيا من نضال ... تهيب بنا لاذكاء النضال
وفي ذكراك للاخلاق هدي ... ليبلغ صرخها أوج المعالي
فهل كانت لنا ذكراك درسا ... أم الذكرى رحام في احتفال
فندعو الله أن تبقى خطانا ... على درب الرسالة والكمال

• • • • • •

رسول الله ضقت اليوم ذرعا ... وكاد يكون عقلي في خبال
زرعت الكون أجمعه سلافا ... بايمان وصبر واحتمال
ونجني اليوم خلفا وانحلالا ... بدعوى السلم في ذل السؤال
فمن يأمل من الاعداء خيرا ... كمن يبني القصور على الرمال

• • • • • •

رسول الله يا خير البرايا ... ويا مثلا يجل على المثال
حملت الوحي في قلب كبير ... تولاه المهيمن ذو الجلال
وأنقذت الخليقة من ضلال ... ومن جور وسقم واعتلال
ورسخت العدالة في البرايا ... وكنت الاشتراكي المثالي
فما ظل الربا نعماء قوم ... ولا الصدقات انقاصا لمال
ولا التفضيل بين الناس الا ... بتقوى الله في صدق اتصال
بلال كان عبدا أعجميا ... أما أصغى الرسول الى بلال
بلال كان للاسلام صوتا ... يبدد كل أبواق الضلال
أرحنا يا بلال فأنت منا ... وما منا نفاق أبي رغال

• • • • • •

أبا الزهراء ما للناس تمشي ... جحافلهم الى حرب النكال
يسعر نارها شره وحقد ... تشيب لهولها سود الليالي
كأن الله لم ينزل كتابا ... يشرع فيه أسباب القتال
كأن الله لم يبعث رسولا ... يميز لنا الحرام من الحلال
ففي القرآن أوضح كل أمر ... وبيَّن في الرسالة كل حال
فطوبى للألى اعتنقوا هداه ... فأرشدهم الى حسن المآل
وطوبى للألى حكموا بعدل ... فمد العدل دنيا من ظلال
هو الفاروق قال لو ان شاة ... تضل لخفت من هول السوآل
وسيدنا علي قال ردوا ... نصال الشر عنكم بالنصال
فما غير العدالة من دواء ... به نشفى من الداء العضال
ولا غير السلاح لنا سبيل ... فدنيا المجد في ظل العوالي
ومهما كان للأسباب شأن ... فقف بالباب واسأل بابتهال
هو المعطي بلا من وأجر ... هو الهادي الى خير الفعال
فأذنب وهو يغفر لي ذنوبي ... ويرعاني بعجزي واكتهالي
وان قصرت يوما نحو صحبي ... تنادوا للخصومة والنزال
فباب الله مفتوح أمامي ... وبابهم يضيق به مجالي
جنيت الاثم من أخذ ورد ... ومن قيل بمجلسهم وقال
وعدت وليس في عمري مجال ... لمحو خطيئتي قبل ارتحالي
فكن لي يا رسول الله عونا ... على ما ضقت فيه من الوبال
فلا ولدي اذا ثقلت ذنوبي ... يخففها ولا عمي وخالي
ولا الخل الوفي ولا تلمني ... اذا قلت الوفا صعب المنال
مناي شفاعة تمحو ذنوبي ... فان كنت الشفيع فما أبالي

• • • • • •

أخا الدنيا أرى دنياك أفعى ... بها الانياب تنضح بالثمال
فلا تأمن لها واحسب ليوم ... حسابا فيه يرخص كل غال
ولا تأمل خلودا في حياة ... وثق أن الخلود من المحال
فتقوى المرء زاد أي زاد ... لدار الخلد من دار الزوال

عبد المجيد التجار ـ دمشق

نظام الدورات الاقتصادية والاجتماعية في السلّم الحضاري عند ابن خلدون

علي السيد

ابن خلدون الاقتصادي :

يعتبر ابن خلدون من الفلاسفة العرب الاوائل الذين وضعوا تحليلا علميا ودقيقا للازمات الاقتصادية والاجتماعية التي تعصف بالامم عادة .

وعودة أولية لبعض ما كتبه هذا المفكر الاقتصادي والاجتماعي الكبير ، توضح لنا الاهمية التي اكتسبتها هذه الكتابات في الفكر الاقتصادي والاجتماعي الحديث . فتعريفه لاقتصاد الدولة بأنه مجموع المدخلات والمخرجات للنشاط الانتاجي لكل امة ، وتمييزه بين ثروات الامم ، زيادة او نقصانا ، تبعا لحركة الانتاج والاستثمار في كل منهـا ، وصياغته لنظرية النقود ، التي عبر فيها عن فهم عميق ، لطبيعة النقد ، وسيولته بين الدولة والافراد ، والافراد فيما بينهم ، واستخفافه بالترهات التي تقول : بأن قيمة النقد من ذهب وفضة انما هي تنبع من القيمة الذاتية لهذه المعادن ، كل هذه المؤشرات تؤكد ريادته لهذا العلم الحديث ، كما تشير من ناحية اخرى الى استظلال معظم المفكرين الغربيين بظلال فكره . اذ من المعروف أن معظم هذه النظريات ، لعبت دورا مهما في الاقصاد العالمي على مر القرون الاخيرة . ذلك أن الكثير من وجهات النظر الاقتصادية التي ظهرت في القرنين السادس عشر والسابع عشر مع ظهور المركانتيليين . كانت متخلفة عن اللحاق بفكر ابن خلدون ، حين عرفت الثروة في قطر ما بأنها : مجموع مايختاره هذا القطر من معادن ثمينة كالذهب والفضة . ولم تكن أفكار أدم سميث أفضل حالا من المركانتيلية فهي وان جاءت ـ على أنقاض هذه الاخيرة ، الا انها لم تستطع أن تدخل تغييرا جذريا في نظرية النقد ، بل اضافت اليها مفهوما جديدا ، وهو : اضافة الميزان التجاري كعامل من العوامل الهامة في بنية الاقتصاد . هذا ولم يستطع الفكر الحديث اللحاق بنظريات ابن خلدون الاقتصادية والاجتماعية الا في مطلع القرن العشرين ، حيث انطلق في التعبير عن الحركة الاقتصادية في مجتمع ما بأنها مجموع الانتاج والاستهلاك والادخار ، على يد SAY سي وكينز ، فقد اطرح هذان العالمان فكرة تحليل بنية الاقتصاد . ولكن أهم اكتشاف لهذا العالم الاخير كان تفسير حركة الاقتصاد من خلال الدورات الاقتصادية التي تمر بالمجتمعات بين الحين والاخر . وقد اعتبر هذا الاكتشاف الاخير أهم انجاز له تم في القرن العشرين .

وابن خلدون الذي بقيت نظرياته الاقتصادية بين احضان الفكر الغربي ، ينهل منها ما يشاء ، وقف من هذه الدورات قبل تسعة قرون خلت ، موقف المستوعب لحركة التاريخ ، عندما درس بنيتها الاقتصادية والاجتماعية ، والحضارية ، مستخلصا منها منهجا نظريا ، يحتكم الى اصول ثابتة في توضيح حركية الاقتصاد وتلازمها مع حركية المجتمع

عمر الدورة الاقتصادية :

يرى ابن خلدون أن اعمار الدول شبيهة بأعمار الاشخاص ، وأن أعمار الدول لاتتجاوز أعمار أجيال من السكان ـ باعتبار أن عمر الجيل الواحد / ٤٠ / سنة ـ وهذا يعني أن عمر الدورة بالامم المتقدمة لاتتجاوز / ١٢٠ / سنة وهو تحديد يقترب فيه من أحدث النظريات الاقتصادية حول هذه الدورات والتي تقدر عمرها من ٥٠ ـ ٧٠ سنة . ومفهوم الدورة الاقتصادية مفهوم معقد شاغل أذهان العديد من الاقتصاديين في عصرنا ، فقد ذهب بعضهم الى أن أسباب حدوث الدورة الاقتصادية هو ناتج عن تغير في المناخ أو لظهور بقع شمسية ، معتبرين أن بدايتها ونهايتها مرتبط

بالظواهر الفلكية ، وذهب اخرون الى أن اسبابها مرتبطة بالاكتشافات والمخترعات ، غير أن التفسير الاجد لهذه الدورات هو ما قاله كينز واتباعه حين ربطوا ما بين حدوث الدورات الاقتصادية وحالة الافراط في الاستثمار • وهو مفهوم اقتربوا فيه بشكل جزئي مما أشار اليه ابن خلدون في مقدمته •

تحليل الدورة الحضارية :

لم يحاول ابن خلدون ان يوجد سببا لبداية ونهاية الدورة فحسب ، بل توسع في مفهومها ليصف لنا الظواهر الاجتماعية المرافقة • فهو ينطلق من الحقائق الاساسية المرافقة للحياة ، حين يرى ان الاحزاب السياسية بما تحمله من عقائد أو عصبيات غايتها بناء الدولة ، وبناء الدولة ـ في رأيه ـ غايته تحقيق العمران والرفاه للمجتمع • غير أن هذا الرفاه لايمكنه أن يبقى على حاله في سيره المتصاعد ، وانما يبدأ يواجه اختناقات متتالية ، تسير بالاقتصاد نحو الانهيار ويشبه بذلك احوال المجتمعات بأحوال البشر ، فكما ان للانسان فترة حيوية تنتهي ببداية الاربعين من عمره حين يبدأ جسمه في الانحطاط بعد توقف قليل ، كذلك الحال « في الحضارة والعمران فانها غاية لا مزيد وراءها » •

فالحضارة والعمران برأيه لايبقيا على حالهما اذ ، بل تطرأ على المجتمع على صنوف الرفاه ، ويندمج في مظاهر الحضارة ، « ويتخلق بعوائدها » • وتبدأ هذه الاحوال فعلها في المجتمع ، فيتفنن الفرد في الترف ، وفي تحسين أحواله « ويكلف بكل أنواع الصناعات التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الانية ولسائر أحوال المنزل » • وهي زائدة في أحواله لم يكن به حاجة اليها في بدايات نشوئه المجتمعي • فاذا تجاوت هذه الاحوال مرحلة معينة ، يبدأ عندها تحكم الغرائز • فتصبح النفس مقادة تسيرها هذه الغرائز • فتفقد الخلق الذي تطبعت به في بداية عهدها ، وتخلو العقائد من كل اثاره في وجدانها • فيضفي على هذه العقائد نوع من الجمود والحرفية ، تفقد معها روحها ، كما يطغى على مطالبها المادية أنواع العادات التي تخلق بها أهلوها فيعجز الكسب عن تأمينها • وتبدأ عندئذ مرحلة من الكساد نتيجة للافراط في الاستثمار ، وعدم مرونة الطلب • ويترافق كل ذلك بحدوث دورتين احدهما اقتصادية والاخرى اجتماعية تنتهيان باحداث فساد عام في الدولة :

آ ـ الدورة الاقتصادية :

يرى ابن خلدون بأن الحضارة كلما كانت متقدمة بأمة من الامم ، كلما عظمت نفقات أهلوها • فالتطور الحضاري يعكس معه عمرانا أكثر ، وهذا بدوره يعكس انفاقا أكبر ، تزيد بموجبه اسعار المنتجات ، ثم تأتي الضرائب لتضاف تكاليفها على هذه المنتجات ، فتعم موجات غلاء الاسعار «لان السوق والتجار كلهم يحتسبون على سلعهم وبضائعهم جميع ما ينفقونه حتى في مؤونة أنفسهم ، فيكون المكس (الضريبة) لذلك داخلا في قيم المبيعات وأثمانها » • عندئذ تعظم النفقات نتيجة لارتفاع الاسعار ، ويكثر السعي للاسراف ، ولا يرون مفرا من ذلك • فتكثر المخرجات في الدولة وتعجز مداخليها عن الوفاء بها ، فتبدأ مرحلة الاختناقات الاقتصادية ، حين يعجز المواطنون عن أداء التزاماتهم التي تعودوا على الوفاء بها ، سواء تجاه الدولة أم تجاه أنفسهم وأسرهم • فيعم الاسواق حالات الكساد « فتكسد الاسواق ويفسد حال المدينة » وهذا كله مرده الى افراط في الحضارة والترف نتيجة لفرط الاستثمار •

ب ـ الدورة الاجتماعية :

أما في مجال الفساد الاجتماعي فيرى ابن خلدون أن فساد الافراد ناتج عن تأمين حاجاته المتزايدة ، لا بد له ان « يتلون بكل الوان الشر في تحصيلها » • وهذا التلون ينعكس عليه وعلى عياله وعلى مجتمعه « فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحايل للحصول على أنواع المعاش » بكل الطرق والوسائل • وتنصرف النفس الى الفوضى في التفكير بمثل هذه الاحابيل فينتشر « الكذب والغش والخداع والمقامرة والخلاعة والسرقة والفجور في الايمان والربا في البياعات » ثم تصبح هذه الوسائل صريحة في التعامل بين الناس ، والخوض في مسائلها غير مجلب للحياء ، حتى أنها تنتشر بين الاقارب وذوي المحارم التي تقضي أوليات الاخلاق والحياء بالاقذاع عن معاملتهم بها •

فيصبح تعاملهم بالمكر والخديعة ركيزة في اخلاقهم لا يردعهم عن الاتيان بها ما ينالهم من القهر ، وما يتوقعونه من العقاب على تلك القبائح ، وتتحول هذه الامور الى اخلاق وعادات • حيث « يموج بحر المدينة بالسفلة من اهل الاخلاق الزميمة » ، ويجري مجراهم « كثير من ناشئة الدولة وولدانهم ـ بمن بعدت بهم الاخلاق السيئة عن اتباع الفضائل وتغلبت عليهم خلق الجواري • ولو كانوا أصحاب انساب او بيوتات • فالناس عند ابن خلدون متساوون ، لا فرق بينهم الا في الاخلاق واكتساب الفضائل ، واجتناب الرذائل ، فمن تطبع بطباع الرذيلة استحكمت فيه ، وبعد عن طريق الخير ، حيث لا ينفعه زكاء منسبه ولا طيب منبته • وتمتلىء اماكن الرذيلة ـ بأصحاب الانساب واعقاب البيوت واصحاب الدولة ـ حيث يحترفون الحرف الدنيئة في معاشهم ، مستفيدين بما فسد من اخلاقهم ، وما يكونوا به من صبغة الشر •

ج ـ فساد المدينة ـ الدولة ـ :

يرى ابن خلدون ان انهيار المدينة وخرابها انما يتم بحصول هذين العاملين اللذين اوردنا ذكرهما ، ويستعين في تأكيد وجهة نظره ، بقوله تعالى : « واذا اردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليهم القول ، فدمرناها تدميرا » . ويفسر هذه الاية تفسيرا اقتصاديا . حين يعبر عن انهيار الاقتصاد ـ بعجز الدخل عن اللحاق بالخرج ـ وهو ما يسمى في علم الاقتصاد الحديث تخلف العرض عن اللحاق بالطلب والذي ينجم عنه الكساد ، فالاا تزامن حصول هذا الخلل الاقتصادي مع خلل اجتماعي ايضا ـ اختل نظام المدينة وخربت ـ . ويورد في ذلك مثالا شاع في عصره وهو تخوف العامة من زراعة نبات يدعى النارنج ، وباعتباره نذير شؤم يؤذن بخراب البيوت ويقولون في ذلك ـ ان المدينة اذا كثر فيها غرس النارنج تأذنت بالخراب ـ .

والنارنج كما يراه ابن خلدون ثابت لا طعم فيه ولا منفعة كغيره من الليم والسرو الا أن كثرة زراعتــه ، سعيا وراء منظره ، بالرغممما يورثه من تبديد في أعمال البستنة ومن هدر في كميات المياه ، يعكسحالة الترف التي يعيشها الحال في زراعة نبات آخر هو الدفلة ، فهو يرى أن رغبة الناس بها هي التمتع بأنواعها المتعددة ، وما تنشره من زينة في الحدائق . بينما لا فائدة منها رائحة أو طعما .

مؤشر سقوط الحضارة :

يعتبر ابن خلدون أن بدايات سقوط الحضارة هي في انهماك الناسفيشهواتهم واسترسالهمفيكثرة الترف. فكثرة التفنن بالمآكل والمشارب ، يتبع ذلك كثرة التفنن بأنواع المناكح من الزنا واللواط ، التي تضفي الى الفساد في النوع « فاختلاط الانساب كما في الزنا فيجهل كل واحد ابنهحيث تتفكك الاسرة لفقدان الشفقة الطبيعية علىالبنين،فيهلكون» وكذا الحال في اللواط حيث ينصرف الناس عن التناسل ، وينقطع أثرهم .

بلوغ الدورة الحضارية نهايتها :

يعتقد ابنخلدونأن وصول المجتمع الى المراحل العليا للحضارة والترف هو الغاية التي تسعى الدولة الى تحقيقها، فاذا بلغتها انقلبت هذه الحضارة الى فساد ، حيث يأخذ المجتمع بالتراجع ، آخذا شكل انسان هرم تجاوز سنا معينا اصبح بعدها غير قادر على ممارسة دوره ، فيأخذ حينئذ بالتردي والسقوط .

فالحضارة في رأيه مفسدة للانسان « الاخلاقالحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد » ذلك أن الانسان في رأيه هذه الطاقة الخلاقة القادرة على جلب المنافع ودفع المضار واستقامة الخلق ، فاذا ضعفت لديه هذه القابليات أصبح عرضة للفساد .

ومن هذه الحقيقة في تعريف الانسان الذي أغلته الحضارة ، ينطلق الى أن :

« الحضري لا يقدر على مباشرته حاجته ، أما عجزا لما والترف » ، كما ان الحضري عاجز عن دفع المضار عن نفسه والترف ـ ، كما ان الحضري عاجز عن دفع المضار عن نفسه ـ بما فقد من خلق البأس بالترف والمربى ـ . لذلك يصبح في اغلب الاحوال عبئا على جماعته الذين يدافعون عنه . ثم هو قد فسد في دينه وخلقه بما اكتسب من عوائد زميمة، وما تلوثت به نفسه ، ويخلص اخيرا لان يضع قاعدته حضارية اساسية ـ اذا فسد الانسان في قدرته ثم في اخلاقه ودينه ، فقد فسدت انسانيته وصار مسخا على الحقيقة ـ .

وينتهي اخيرا الى ان مثل هذه الاحوال هي التي كانت تدعو السلطان دوما الى العودة الى خلقابناءالاريافوالبوادي والى الاعتماد عليهم ، حين تفسد مظاهر الترف رجاله .

اطلالة حديثة على فكر ابن خلدون :

لا شك أن ابن خلدون في فكره المتقد هذا ، وفي نظرته التي شاعت في مطالع العصور الوسطى والحديثة ، انطلق من مقولة اساسية وهامة ، وهي اسبقية الظواهر المجتمعية على الظواهر الاقتصادية ، وهي مقولة يتسم الفكر المجتمعي العربي منذ الازل بهذا الميسم ، فالانسان المجتمعيفيالحضارة العربية هو الظاهرة الغالبة على الوجود الانساني ، باعتباره اصل الحياة العقلانية في هذا الكون ، وهو مصدر ـ السنة الاشياء ـ . ومن هنا كان خلافه واسعا اشد السعة مع كل النظريات الحديثة لعلم الاقتصاد ، حين نظرت هذه الاخيرة الى الامور نظرة عكسية من خلال مقولتها بأولوية الظواهر الاقتصادية على الظواهر الاجتماعية ، وهو ان اولى النظرة الاقتصادية بعض الاهمية في حياة الامم والشعوب ، فانما امة ـ اي عندما تصل هذه الامم الى مرحلة الشيخوخة ، وحين تكون قد استهلكتها حياتها المادية ـ .

على ان نظرات ابن خلدون هذه ، لم تجعل الفكر الغربي الوسيط والمعاصر والممثل بالحضارة الغربية ، يحجم عن أن ينهل منه الكثير من وجهات نظره ، وان انقسم هذا الفكر على نفسه في استيعاب فكره ، حين اتجه القسم الاول الى تحليل الدورات الحضارية التي تمر بالمجتمعات ، اتجاها ماديا صرفا ، بينما اتجه القسم الثاني الى تحليلها ، وفقا لمعايير اجتماعية صرفة :

١ ـ المذاهب المادية في تحليل الدورات الحضارية للمجتمعات .

وتشتمل هذه المذاهب على اتجاهين :

ـ الاول مادي ومغرق في ماديته ، وهو الاتجاه الماركسي حين ينطلق في تحليله للدورات الحضارية في التاريخ من مقولات اقتصادية ، مقدما الظواهر الاقتصادية على غيرها فالاقتصاد في رأيه هو محرك التاريخ ، والعلاقات الاقتصادية ـ علاقات الانتاج ـ هي التي تحدد تاريخ تطور المجتمعات ـ فالمجتمع الاقطاعي ينمو في احضان المجتمع الرعوي ، والمجتمع البورجوازي ينمو في احضان الاقطاعي ، والمجتمع الرأسمالي ينمو في احضان المجتمع البورجوازي ٠٠٠ وهكذا ـ أي ان التاريخ الحضاري للمجتمعات يخضع لقانون احدي Monistic ، غير أن هذا الاتجاه على نظرته المتفردة للسلوك المجتمعي الانساني ما يلبث ان يلتقي مع ابن خلدون في تحليله لمراحل الشيخوخة التي لا بد وان تمر بها المجتمعات والتي تؤدي بها عادة الى الانهيار ، حين يؤكد ان تناقضاتها الداخلية وهي في مرحلة الهرم ، ستودي بها حتما الى الزوال ، ليحل محلها فيما بعد مجتمع جديد ٠

ـ الثاني : وهو مادي ايضا الا انه أقل انسياحا مع الاتجاه الاول ، حين يرى ان التناقضات التي تجتاح المجتمعات يمكن حلها ، وبذلك يمكن اطالة عمر الدورة الحضارية الى ما لا نهاية ، وتقليصها الى دورات اقتصادية ٠ حتى ان بعض الاقتصاديين كشومبتر Schumpetor يرى في ظهور الدورات ميزة ضرورية للنمو الاقتصادي عن طريق حل التناقضات في المجتمعات الرأسمالية وكبحها ، ومن اجل ذلك نشط العديد من الباحثين (كليمان جوغلار Cloman Juglar ـ ١٨١٩ ـ ١٩٠٥ ـ حين اقدم على التحليل الاستقرائي للدورات والاستاذ ل٠ هـ دوبريه الذي قام بجهد مماثل ٠ ويقوم الان المكتب الوطني للابحاث الاقتصادية على مظاهر النمو ، كما تتولى في ايامنا هذه الحكومات والمنظمات الدولية هذه المهمة ، كمنظمة التعاون والانماء الاقتصادي ، واللجنة الاقتصادية الاوروبية C.E.E القيام بالابحاث الرسمية ٠

ويلخص هذا الاتجاه المؤرخ الانكليزي الشهير توينبي حين يرى ان الدورات الحضارية للمجتمعات تخضع لحركة تقدمية تراجعية ٠

٢ ـ المذاهب الاجتماعية في تحليل الدورات الحضارية للمجتمعات :

ولعل ابرز هذه المذاهب ، مذهب الفيلسوف الغربي اشبنلجر ، فهو يقترب الى حد بعيد من وجهة نظر ابن خلدون حين ينطلق في تحليله للدورات الحضاية للمجتمعات من منطلق تعددي Pluralistic ـ اي ان المجتمع الانساني تتناوبه دورات حضارية بين فترة واخرى ، تتحمل عبئها مجتمعات حضارية ٠ ـ ومن هنا فهو يرى ان المجتمعات الحضارية تستنفذ عادة اغراضها الحضارية بعد فترة ازدهار ، وتندثر بعد ذلك لتحل محلها مجتمعات حضارية اخرى ، ويبدو ذلك واضحا في كتابه ـ سقوط الغرب The aiclin of West فالحضارات التي تؤلف جوهر التاريخ البشري في رأيه هي متعددة وقليلة ، ويدعوها بالامم الحضارية الرفيعة او العظيمة ، وهي : المصرية ، والبابلية ، والهندية ، والصينية والكلاسيكية ـ اليونانية والرومانية ـ، والعربية والمكسيكية والغربية والروسية ، لكنه لا يبحث في الواقع الا في ست منها ، قاصرا اشارته الى بعضها : البابلية والمكسيكية والروسية على ملاحظات موجزة ، ومتوسعا بصفة خاصة في الحضارات الثلاث التي يعتبرها رئيسية : اليونانية ـ الرومانية او الابولونية ، والعربية او الماجية ، والغربية او الفوستية ٠

ويمكن تلخيص وجهة نظره ـ في ان الحضارات هي كائنات عضوية ، والتاريخ العالمي هو مجموعة سيرها ـ ٠ وينتهي اخيرا الى ان الحضارة الغربية هي على وشك الانهيار وان على الانسانية ان تبحث عن امة حضارية جديدة ، تستطيع ادارة دفة العالم ، وحمل مسؤولياته من جديد ٠

تعقيب :

مما لا شك فيه ان انطلاقة اشبنلجر ، اذا ما حملناها محمل الجد ، يمكن لها ان تعيد للانسانية حيويتها ، بحيث يمكن للامم ان تندفع الى حلبة السباق من جديد عن طريق بعث وجودها ، لاستعادة دورها الحضاري ، بدلا من ان تسلم مصيرها الى الحضارة الغربية ، هذه الحضارة التي استنزفت نفسها كما استنزفت شعوبها ، وهي تستنزف اخيرا الانسانية من خلال رزوحها على كواهل الشعوب وامتصاص خيراتها وثرواتها البشرية والمادية ، ومن خلال اسطورة التفوق التي طالما انتهت على مذبحها عشرات الملايين من ابناء الشعوب المضطهدة ومن شعوبها هي نفسها ، ولعل هذه الحقائق هي التي تؤذن بزوال الحضارة الغربية ٠ غير ان ركامها هذا لا بد وان تزيله حضارة بديلة قادرة على الانبعاث من جديد حينئذ لا بد لنا من العودة الى مقولات اشبنلجر وان نبحث بين الامم الحضارية الرفيعة عن امة بديلة ، ولعل امتنا العربية ، بما قد عرف عنها في التاريخ الحضاري وبما تمتلكه من ثروات ، اقدر الامم على كسر هذا الطوق ، وحمل هذه المسؤولية ٠

علي السيد

الربيع والضفادع

القصة

ملك حاج عبيد

الربيع .. يا أهلا ، وتغمرني نسمة مرحة، تتسرب الى كيـاني ، وتنساب في عروقي ، فيضطرب في قلبي شوق ممض الى مجهول لا أدري كنهه يتحقق في نسمة عذبة ، في اغنية حلوة ، في تفتح برعم ، في خفقة نجم ، فيجتاحني ألم عذب ورغبة في الانطلاق .. أرى الدنيـا في الوجـوه الضاحكة ، والالـوان المشرقة ، أيـة فتنة هي الحيـاة ؟ .

استخفني الفرح، فقطعت الطريق راكضة، وصلت الرصيف لاهثة ، سرت خطوات قبل أن ألمح رجلا يقف على الرصيف الذي سأعبره وقـد انحنت عليه شجرة مبرعمة فلامست رأسه وكان يدير ظهره لي وكنت أسير باتجاهـه .

ماذا لو كنت ؟ لماذا أفكر بك دائما ، يخيل الي أني لا بد أن أراك .

كدت أحـاذي الرجل ، وعندمـا ادار رأسـه ، عرفتك ! كنت أنت .. أشحت بوجهي لا أريد أن اراك لا استطيع ان أرى آمالي تموت في عيني أي انسـان ، اردت الاسراع ، لكن تدفقت السيارات ، ووقفت على بعد خطوات منك انتظر الاشارة الخضراء ، مـا أعذب ان نلتقي هذا اللقاء وانا التي ظننت أننا لن نفترق أبدا !

القصة تبدو لي وكأنها حادث سحيق على الرغم من اني لم أفلت من قبضتها بعد ، لم أكن صغيرة ، كنت في العشرين من عمري ولكن بلا تجارب :

أذكر كيف عدت الى عملي بعد اجازة فحص السنة الثانية ، وعلمت ان رئيسنا في الدائرة قد أحيل الـى التقاعد وأن رئيسا جديدا سيأتي الينا . وأخذت أرسم صورة الرئيس الجديد ، لا بد أن يكون أصلع ، له كرش كبير ، على عينيه نظارتان سميكتان، ولكنني فوجئت بك شاب في السابعة والثلاثين ، جذاب ، وسيم ، اسمر ، حدقت فيك واضطربت أحسست أنني أعرفك من زمن بعيد .. استمعت اليك تتحدث ، لهجتك عذبة صافية ذكرتني بالصحراء التي أقمت من شعرها ورمالها آلهتي وقصوري . أصغيت بكل جوارحي لجرس عميق يذبل صوتك ، أنصت لقافلة تسري في ليل حالم وحداء عذب يداعب السكون فيشيع في النفس شعور بأسى عذب ، يرهف حس الانسان ، ولكن لا يدركه .

تأملتك وأنت تشرب القهوة ، وأنت تغرق في دخان سيجارتك ، وأنت تتـوه في سماء تمنيت أن أعرفهـا ، بماذا تفكر ، ما الذي يشغلك ؟ .

كنت صامتا ، وكان صمتك يثير فضولي ، كنت شاطئا بعيدا يتألق بغموض سحري ، تدفعني اليه رياح لا أملك دفعها .

وقلت انهـا انطباعات عاديـة عن زميل جديـد ، وستزول مع الايام ، الى أن اقترب موعد الدورة الثانية جلست في المساء أدرس ، ولكني لم أفهم ، كنت أفكر بك أقصيتك عن تفكيري ، وحدقت في الكتاب . . كان وجهك بين سطوره . اغلقت كتابي بعصبية وهرعت الى سريري دخنت عشـر سجائر ، وكانت أول مرة أدخن فيهـا ، كان الغضب يمزقني ، هل أنا أحبك ؟.

الحب ملغى في حياتي هو للفارغات ، أمـا أنـا . . فلي آفاقي العريضة . . وصممت أن أقاطعك ، لا أنظر اليك ، ولا أحدثـك ، ولكنني . . كنت استسقط كلماتك وأنا مطرقة ، أراك حتى وأنا أنظر الى الجهة المعاكسة . وعرفت انك متضايق من وظيفتك وأنك تسعى لتنتقل ، وتحقق لك ما أردت ، ونقلت .

جرحني الخبر ، كادت دموعي تطفر وأنـا أودعك ضاحكة واتمنى لك عملا موفقا ، لأدري هل كنت فرحة لذهابك أم كنت حزينة ، لقد تحقق لي ما أردت ، ولكن هل هذا حقا ما أريده ؟.

لماذا جننت من الفرح عندما رأيتك في اليوم التالي وعرفت أنني سألقاك كل يوم امـام المطعم الذي عرفت فيما بعد أنه مطعمك المفضل ؟ .

وأطل أتفحص المارة وأكاد اثب لاتجاوز ازدحـام الموظفين ، وعلى البعد يخفق قلبي لمرآك وعندما أحاذيك أحييك بمرح وانطلق والفرحة لا تسعني .

كنت أدفع نهاري دفعا الى هذه اللحظة المضيئة ، أترقبها من بداية اليوم ، ولاجلها أنتظر اليوم التالي .

وعاش الحب في قلبي سجينا ، حيا لا أبـوح به ، ولكن صديقتي كشفتني ذات يوم ، لقد اخفقت في اخفاء اضطرابي لتأخرك ، وعندما ظهرت لـم أفلح في تغييب بسمة عريضة ، فسألتني بنظراتها الخبيثة .

ـ أهذا هو ؟ .

هززت رأسي بالايجاب ، تأملتك بامتعاض وقالت :

ـ ظننته والدك ، أنت ربيع وهو قد أدار ظهره للربيع قلت باندفاعي .

ـ الربيع طيش ورعونة ، أما هو فهو النضج والحنان ، لقد فجر في قلبي ينابيع مشاعر لم أعرفها من قبل .

وفجأة اختفيت لم أعد أراك ، ولم أسمع عنك شيئا وتوالت الايام كان الاسى يعتصر قلبي والدموع تملأ عيني ومضيت أجرجر ايامي ، عيناي تبحثان عنك في كل مكان تطلعانك من كل عطفـة ، وطويت قلبي على القصة التي لم تبدأ بعد . مر الشتاء ، اقترب موعـد الامتحان ، فانشغلت بالدراسة ، كادت أيامـه تنتهي ، وفي آخـر يوم وأنا أخرج من قاعة الفحص رايتك ـ أهكذا ؟ فجأة بلا توقع كانت فرحتي مجنونة ، منعتني حتى أن أنظر اليك ، واستحال الرصيف الى ملايين السنابل ، تحركها ألف فسحة عذبة ، وازهار حلوة تنتشر حتى السماء .

أغمضت عيني وفرحـة غامرة تفتحه ، تمنيت أن أعانق العالم كله أن اركض . واتفقت أنـا ورفيقتي أن نكلمك ، أريد أن أعرف كل شيء عنك ، ادرت لها رقـم عملك ، وتركت لها الغرفة هاربة .

وجاءتني بعد لحظات تقول :

ـ لا أظنه طيبا كما تتصورين ان له قصصا وحكايا ، لقد أعطاني رقم هاتف بيته .

واندفعت وانا التي لا أعرف عنك شيئا أؤكد لهـا أنك أروع انسان في الوجود .

وأدرت رقم بيتك . . مستحيل أن أكلمك ، ولكن المستحيل هو ان لا أكلمك ؟ . واحتبس صوتي في حلقي وأنا أسمعك ، شعرت أنك تعرفني وتراني . . فانطلقت أكـذب بأقصى ما استطعت حتى ضللتك . . تكلمنا في قضايا عامة المجتمع والناس . . وهذه الحكايا كلها .

تكلمت معك ثانية وثالثة ورابعة . ـ لم يتغير حديثك كنت أتمنى منك شيئا لا اعرفـه ، كنت أفتح لك قلبي أطلعك على كل أمنية فيه ، على كل خاطرة وتوقعت منك أن تجيب على أسئلتي كلهـا أن تقرا حتى الاسئلة التي لم أطرحها بعد ، لكنك بقيت شاطئا متوحدا ، مهجورا لا تسمح لاحد بالاقتراب منك .

أشعر أن قلبك كبير كبير يسع الدنيا ، لكنه موصد وانا أدق بأسى ، تمنيت أن أطوي أشرعتي ، لكنني أبحرت دفعتني الريح . . واندفعت نحـوك ، كانت التجربـة تستهويني ، تجـذبني . . تسحرني . . وعـرفتني ،

وشعرت بالخجل ما كان يجب أن أبدأ .

طلبت مني أن نخرج سوية ، قلت انني لن أجرح اهلي ولن اخون ثقتهم ، ولم تكن هذه هي القضية ، شعرت أن القصة لم تنضج لحد اللقاء ، قد تكون ناضجة من جهتي ولكنها مهمة من جهتك ..

ومرت الايام ، وجئتني تقول انك ستسافر الى اوربا في سياحة تستغرق شهرا شعرت بأسى ، كانت اول مرة آسى لفراق انسان .

تمنيت أن يحدث أي شيء يعوق سفرك ان يضيع جوازك ان تسرق نقودك لا استطيع احتمال افتقادك شهرا ، لقد اعتدت ان احادثك يوميا ، اصبح حديثك جزءا من حياتي ، جزءا حلوا ، ليكن من السهل ان اتخلى عنه .

ومر الشهر .. بطيئا .. بطيئا ، لا شيء مثير ، لا لهفة ، لا أمنية ، لا خفقة قلب .

كنت أدير رقمك وأنا أعرف أن أحدا لن يجيب ، ويوم أجبتني شعرت بفرح أهوج ، تمنيت أن أقول لك :

ـ لقد أحببتك كثيرا ، وافتقدتك كثيرا ، وأنك عشت في عيني وفي قلبي ، وأنني سأتخلى عن آمالي كلها واحبك انت ، لقد كانت آمالي غالية ، ولكنك كنت اغلاها ، الا انني سألتك باتزان عن رحلتك وعن الفتيات هناك ، وقلت لي :

ـ تمنيت ان لا ارجع فهناك الحياة

وفاجأتني بسؤالك :

ـ ما رأيك بالزواج

صمت ، ما كنت اتوقع هذا السؤال .

وتخيلت بيت قرميد في غابة ساحرة ، وعاصفة هوجاء تنطلق تضرب الاشجار تهاجم النوافذ ، والمطر يغسل الدنيا ، وأنت معي قرب المدفأة ، نقرأ حينا ، نراقب المطر وجداول الماء ، الظلام في الخارج ، نثرثر نضحك ، نخرج في ضوء القمر ، نسير في طرق بعيدة ، نركض ، احدق في عينيك ـ تحدق في عيني ، يا الهي ما أجمل هذا ..

وضحكت سعادة .

جاءني صوتك عاتبا

ـ لماذا تضحكين ؟

هل أستطيع أن أبوح لك بأمنياتي ، لو نقلت اليك اللوحة التي عبرت خيالي ماذا ستظن بي ؟ احتك لتخطبني ؟ ماذا ستقول عني ايضا لقد كنت انا البادئة؟

هل سأروق لك اذا بدوت متحررة ؟ هناك الحياة! والبيت الذي احب ؟ ..

لا أدري لماذا انطلق صوتي يقول بخفة :

ـ الزواج ارتباط غبي لا مبرر له

وأنا أنطق بهذه الكلمات ، شعرت أن الصوت ليس لي ، ولكنني قلتها ، ماعاد باستطاعتي ان استرجعها .

وجاءني صوتك عميقا

ـ لقد احزنتني

وعادت احاديثنا ورحت تلح علي باللقاء ، كنت اريد ان اراك ، اشتقت اليك ، وجهك وعيناك كدت انساهم ، ووعدتك .

جاء اليوم التالي استيقظت مرات قبل الخامسة صباحا ، وبقيت أحسب الساعات للخامسة مساء ، في الرابعة والنصف كنت قد خرجت من البيت ، ولكني لم أكن أريد الذهاب . شعرت بضيق قاتل ، أحسست انني آثمة ، ومع هذا ذهبت ، لا اريد ان اكذب عليك فانا احترمك الى آخر حد .

سرت في الطريق لا أدري اية قوة تسيرني ، كنت اشعر ان فتاة غيري تلك التي تسعى للقائك ، وانا لا أزال اقرأ في شرفتي .

حاولت اقناع نفسي باني ذاهبة لارى نتائج الامتحان ، وبهذه القناعة تابعت طريقي ولمحتك ، لم اشعر بالخوف منك ، وجلسنا في البوفيه تحدثنا ، خرجنا الى الطريق النهر ينساب بعذوبة والشجر يتمايل ، والقمر يطل ، ولكنني لم أكن سعيدة .

سرنا كثيرا ، تحدثنا ، كنت اشعر ان هناك شيئا يمنعك من الانطلاق اكاد المح افكارك ، لماذا لا تتكلم ما يخطر ببالك ؟ تمنيت ان أهزك ان اجبرك على الكلام ، لماذا طلبت ان تراني ؟ .

● الربيـع والضفدع ●

ـ اسمعني صوتك ، اسمعني جديدا ، لقد مللت الاصداء ، ظننتك النور الذي يضيء دنياي ، يعرفني بذاتي ، يغمر قلبي ، لكنك بصمتك تقتلني .. تقتلني ياشاطيء البعيد ، ياقلعة الصمت تكلم .. انني ضجرة .. ضجرة بصحبتك يا الهي لماذا ؟ ..

أشحت عنه وللربيع يممت وجهي اتأمل اصابعه الرائعة في كل ما حولي ، الازهار راحت تستل يأسي . ابتسمت لها بحنو ، فسألتني :

ـ بماذا تفكرين ؟

قلت لك :

ـ بتفتيح الحياة بالربيع

لا ادري لماذا ابتسمت وقلت لي :

ـ في الربيع تتكاثر الضفادع .

حدقت فيك بذهول ، بخوف ، باشمئزاز .

ـ اهذا ما تعرفه ؟ اهذا ماتريد ان تقوله ؟ .

وكأنما قرأت سؤالي فأجبت

ـ غيري قناعاتك ، كوني واقعية .

وغيرت قناعاتي ، ولكن بالنسبة لك ، كنت تبتعد عني تبتعد ، وفي أعماق مستنقع قذر تغوص ، تمنيت ان اساعدك ، ان انتشلك ، لعلك انزلقت ولكنك كنت تضحك .

شعرت بنفسي وحيدة ، شعرت بضياع قاتل ، قلت :

ـ سأذهب

قلت لي :

ـ تعالي معي الى بيتي .

اشحت بوجهي لاكتم رغبتي في صفعك ، تمنيت ان اصرخ في وجهك

ـ اتظنني احدى ساقطات المدينة .

اردت ان اقول كلاما كثيرا ، أن ابكي ، لكنني لم اقل ، لماذا سأقول ؟

ليس عندي رغبة في أي شيء .

كانت دموعي تتسارع الى مقلتي فأردها ، الانسان الذي سأبكي من اجله لم يخلق بعد .

وصلت البيت، كان القمر رهيبا، اصوات لامعنى تغزوني ، لم يكن في ذهني اية فكرة ، كان دماغي يغلي وسؤال يطرق رأسي .

ـ لماذا اسأت الي .

وشعرت باساءتك فحاولت ان تعتذر ، لكنني رفضت حتى ان انظر في وجهك ، لا استطيع ان أراك لا استطيع ان ارى هزيمتي في عيني اي انسان .

حاولت ان أستلك من عيني، وأسلخك من قلبي، وعانيت آلام التمزق ، عانيت غربتي عن ذاتي ، كنت اتساءل من انا ؟ اتلك التي تفصيك عن فكرها أم تلك التي لا تجرؤ على البوح بأمانيها ؟ .

أحبك .. واصرخ من أعماقي .

ـ تافه لا تستحق ان افكر بك ، لم أحبك ، كنت واهمة .

وكنت اعرف انني كاذبة ، فقد كان حبك في اعماق اعماقي .

لماذا أسأت الي ؟ لماذا لم تفهمني ، لقد احببتك اصدق الحب ، كنت اول حب في حياتي ، ربما كانت كلماتي طائشة ، ولكن بوحي من خجلي ، لماذا لم تقدر لماذا لم تستشف ما بقلبي ؟ .. غبي .. غبي .

ولكنني احببتك ايها الغبي ، هذا جزائي ، احمل بألم بخيبة ، بذهول . وتغيب عن عيني ، وتمر الايام ثقيلة ، اتناسى ، اخفق ، اضحك ، ابكي ينبت وجهك في عيني احطمه ، الم حطامه ، استعيد قسماته اعاتبه احمله في قلبي جرحا وحزنا .

ولكن الآن ، وقد رأيتك لم أعد أشعر بالحقد تجاهك ، عرفت أن لكل منا طريقه وعندما لاحت لي صورتك ، استمهلتها بخيالي وودعتها بود ، وابتسمت فالدنيا ربيع ، وغفرت لك انك جرحتني ذات ربيع .

ملك حاج عبيد ـ جبلة

سلي الأقدار..

(المحامي)

د. جميل علوش

تركت القلب في كفيك رهنا   ورحت أسومه رهقا ووهنا

تشبث بالجمال فليس يهدا   وأولع بالخيال فليس يهنا

ويوغل في السراب بلا ارتواء   وكم يعطى الوعود وكم يمنى

أيا أخت المها اسما أو هجاء   ويا شبه الظبا جيدا وجفنا

أتدّكرين ويح الهجر يوما   درجنا فيه في الوادي الهوينا

وأنت بجانبي يزهوك عجب   بخير مفاتن تجلى وتجنى

ووجه في استدارته ائتلاق   وأنف بين منبسط وأقنى

وثغر من ثغور الزهر فيه   جميل تناسق وبديع مبنى

ونحر تزلق الابصار عنه   فتشغل عنه في أعلى وأدنى

صحبتك للوداع وكان ضنكا   ومنيت اللقاء وكان غبنا

وحين طلعت في الوادي تهاوت   عليك جهاته رغدا وأمنا

لمحت زهوره حين اشرأبت   وحين صبا الشقيق به وحنا

فلم أر منك في الزهرات أنقى   على خفر ولا أبهى وأسنى

تنافست الضفاف اليك حبا   على الجهتين من يسرى ويمنى

وباح بما أسر وما أجنا

• • • • • •

وتبغين القصيد كأن قلبي   هزار ان عراه الشوق غنى

كأن الشعر في كفي عود   اذا لمسته أنملة أرنا

كأن الوحي طوع يدي فيهمي   علي من الذرى سحا وهتنا

وحقك ما سلوت هواك لكن   أهبت فلم يعرني الشعر أذنا

طلبت لك الجديد فما تأتى   ورمت لك البديع فما تسنى

وقلت وفي الجوانح بعض ضيق   اذا لم تستطع شيئا تأنى

ولو أني قبلت الغث منه   لعم سحابه سهلا وحزنا

ولكن اصطفى ما جاء منه   وما قد رق قافية ووزنا

وقل لك البديع البدع عقدا ... بصدرك يزدهي ألقا وحسنا
فأنت الي من عيني أدنى ... وأنت من النسيم علي أحنى
أجلت نواظري في كل منحى ... وهمت بخاطري في كل مغنى
فلما استطب لسواك طعما ... ولما استبن لسواك معنى
كأن الله اذ خلق العذارى ... جلتك يمينه تاجا لهنا
فكنّ بذيل سفر الكون هذرا ... وكنت بصدره شعرا وفنا
فسبحان الذي حلى جبينا ... وأبدع مبسما وأدق سنا
لمحتك في الظلام فكنت نجما ... وشمتك في النحوس فكنت يمنا
وحين ضربت في الصحراء وحدي ... أجر بوحشتي ألما وحزنا
نظرت فلحت لي في القيظ ظلا ... وبنت لناظري روضا أغنا

• • • • • •

أحبك في الورود اذا تندت ... أحبك في النسيم اذا تثنى
أحبك في الربيع اذا تهادى ... وجر على بساط الوشي ردنا
أحبك في الرياض الخضر تنمو ... فتطلع برعما وتمد غصنا
أحبك في الطيور اذا تنادت ... فرادى نحو غابتها ومثنى
أحبك ما رأيت سواك مهدا ... تلوذ به صباباتي ووكنا
أحبك ما رأيت سواك مهدا ... يضارعني ولا قيس بلبنى
تريدين القصيد فويح نفسي ... أتلتمسين ارهاق المعنى
لعلك تبتغين دليل صدق ... على ما في السويداء استكنا
كأني ما فتحت اليك صدرا ... وكشفت المحجب والمكنى
كأني ما شرحت اليك وجدي ... وقلبت الهوى ظهرا وبطنا
كأني ما عرضت كتاب عمري ... على عينيك حاشية ومتنا

تظنين الهوى خمدت جذاه | وقلبي من مشاغله اطمأنا
فلا ثغر يبوح ولا فؤاد | ينوح ولا مواويل تغنى
وما رحل الشباب فكيف يطوي | عبير ربيعه الفواح عنا
ولو نفذت يداك الى شغافي | وفضت عنه بعد الكن كنا
لألفت فيه من عنت الليالي | على صفحاته جرحا وطعنا
أيسلم من هوى عينيك عان | ويبرأ من لظى شفتيك مضنى ؟
وكيف وما تزال على لهيب | ضلوعي من سعير الشوق تحنى ؟
وفي جنبي للصبوات موج | طغى من فرط لهفته وجنا

• • • • • •

تريدين القصيد فأين حبي | اذا خيبت للمحبوب ظنا ؟
أيلقى الشعر أرهف منك سمعا | اذا يتلى وأثقب منك ذهنا ؟
وأعمق منك للمقصود فهما | وأعرف منك بالمنوي ضمنا ؟
وأفسح منك للتقبيل صدرا | وأدفأ منك للتدليل حضنا ؟
خذي ما شئت من شعري فحسبي | له في فجوة النهدين سكنى

• • • • • •

ثبي ما اسطعت في الدنيا وطيري | وطوفيها أقاليما ومدنا
وشقي في عيالمها عبابا | وخوضي فوقها صحوا ودجنا
ستدفعنا الغيوب الى طريق | يضم شتاتنا ويلم منا
فهل سيطول في تيه سرانا | وهل ستحين لقيانا وأنى ؟
سلي الاقدار ما ستميط عنه | وخليني أذوب جوى وأضنى

جميل علوش — الاردن ــ عمان

بين نعيمة والعقاد

المحامي

وداد سكاكيني

كانت الفاتحة الادبية لميخائيل نعيمة كما روى هو عن نفسه ــ مقالته النقدية لرواية الاجنحة المتكسرة ــ التي نشرها كاتبها جبران خليل جبران عام ١٩١٢ في نيويورك ، وقد لقيت هذه الرواية اهتمام المتبرمين بأدباء التكلف والتقليد في مصر والعالم العربي ، فعدها المبكرون في الوعي الفكري بشرى التجديد الذي طلع به من وراء البحار اديب من لبنان ،كما طلع بمثله نقاد على ضفاف النيل سبقوا الى الثقافة الغربية وجمعوا بين القديم والجديد في ادبهم ونقدهم ، وكان ميخائيل نعيمة اسبق انداده في المهجر الى تتبع الثورة النقدية في مصر من خلال الصحف التي حملت اخبارها وآثارها ، وقبل ان يكتب نعيمة نقد ــ الاجنحة المتكسرة ــ قرأ في صحيفةعربية بنيويورك ــ مقالا طويلا عن هذه الرواية ، لايقول شيئا عن الكتاب والكاتب بل يحاول ان يقول تقريظا لو صدقه ــ اي نعيمة ــ لقال ان جبران فلتة من فلتات الزمان ، لكنه لم يصدق المقال لان كل كلمة فيه تكذب التي قبلها لما فيها من الغلو في الاطراء الفارغ ــ «١»

وبعد ايام وقعت في يد نعيمة نسخةمن ــ الاجنحة المتكسرة ــ فاستفزته «٢» كما قال: (لنقد هذه الرواية منددا تنديدا مرا بجمود اللغة العربية في خلال عصور طويلة وانصراف كتابها وشعرائها عن الحياة في داخلهم ومن حولهم الى الشعوذات اللغوية والبهرجات الفارغة والتقليد الميت)

اما رواية ــ الاجنحة المتكسرة ــ فقد اعجبته،كما قال لكنه : « بين ما فيها من نقص فني من حيث العوامل النفسيةوتصوير الاشخاص وتنسيق الحوادثوتطبيقها على الحياة ، كما نوه بروعة التجديد فيها قائلا :

« وجدت في اسلوب الرواية فجر عصر جديد ورايت في مؤلفها الذي ادرك سر الالوان والانغامفي الكلام وسر التأليف بين تلك الالوان والانغام نسرا فنيا مهيض الجناح غير ان كسره سيجبر وجناحيه سيشتدان وسيسبلهما ؛ ويحلق عاليا في جونا الادبي »

وكان عنوان المقالة النقدية والاعجابية لميخائيل نعيمة ــ فجر الامل بعد ليل اليأس ــ نشرها في مجلة ــ الفنون ــ بنيويورك لصاحبها الشاعر الحمصي المهجري نسيب عريضة رفيق نعيمة في مدرسة الناصرة بفلسطين ، على ان هذه المقالة التي ضمن فيها نعيمة وجبران لم تبق كما كانت ، بل اقتطع منها سطورا وأضاف سطورا حتى جعلها مقالة جديدة عنوانها « حباحب » وقد نشرها في كتابه « الغربال » .

وحباحب ذباب يطير في الليل وله شعاع في ذنبه شبه فيه نعيمة أدباء العرب في القديم والحديث زاعما بأن رفيقا أمريكيا من رفاقه سأله من هو أشهر كتابكم؟

فراح نعيمة كما ذكر في مقاله « حباحب » يبحث في طيات الماضي وصفحات الحاضر ولم يعثر على كاتب يدل عليه ! فقال في « حباحب » :

« اي فكر جديد اودعه العقل العربي في خزانة الاداب العمومية؟ » .

« أم أي تمثال أو صورة أقامها في متاحف الفنون فاستلفتا (٣) ! الانظار ؟ » .

« أم أي نغمة لفظتها روحه فحركت اوتار القلوب ؟ » .

« أم أية بناية شادها او مشروع قام به اوقف العالم متحيرا ؟ »

« ام اية رواية جادت بها قريحته حملت الشبان على اجنحة الآمال الى المستقبل ؟ »

ثم قال نعيمة في « حباحب »

« أسمع أصواتا تنادي وأرى أيادي (٤) تمتد نحوي وألسنة تصب علي النقم والكل يقولون :

« هل نسيت أو انت جاهل أسماء امريء القيس والنابغة الذبياني ولبيد وعلقمة الفحل وعنترة والمهلهل سينا من الاقدمين وشوقي وحافظ والمطران ؟ والمتنبي والهمذاني والاخطل وجرير وابن رشد وابن

«وعلى كل لا اظنكم ظالمين الى حد ان ترفعوا احدا منهم الى مصاف هوميروس وزولا وهيينه وتولستوي(٥)».

وميخائيل نعيمة الذي استهل ادبه في النقمة على ادباء العرب والمفكرين الغابرين والمعاصرين لم يبدل رأيه فيهم ولم يجد قلمه بكلمة اشاد فيها بأحد منهم حتى ظهر جبران واستهواه بالتبشير في أدبه واسلوبه حتى غاب عن دنياه .

على ان ميخائيل نعيمة كان من بين زملائه اعضاء « الرابطة القلمية » بعيد الفكر والنظر الى الناقمين مثله في مصر وفي عصره على أدباء التكلف والتقليد ، وفيهم شعراء انبسطت لهم شهرة ومكانة ولم يكن نعيمة هو السباق الى نقد الادب القائم على الصياغة اللفظية وهو بين رفاقه الثائرين على هذا الادب القديم العقيم بل كان أمين الريحاني وجبران خليل جبران وغيرهما في المهجر يرسلون الصيحة تلو الصيحة لتجديد الفكر العربي والتعبير في الشعر والنثر وكانت ثورة الادباء المجددين من المصريين والنقاد المبكرين في مطالع هذا القرن تتجاوب وتتردد في الصحف والمؤلفات فاستطاع ميخائيل نعيمة من وراء البحار ان يقف على هذه الثورة ويعرف العملاق فيها والدؤوب فكتب تقريظا لكتاب « الفصول » الذي جمع فيه العقاد العملاق مقالاته النقدية عام ١٩٢٢ قبل ان ينشر « الديوان » ثم نشر نعيمة نقدا تهكميا بشعر شوقي الذي تصدى له العقاد بالسخرية والغضب ورآها نعيمة سانحة في تأييد العقاد فنشر مقالته في قصيدة شوقي « الاندلس » وكان العقاد يستهزيء بها فزاد نعيمة في هذا الاستهزاء ووصف القصيدة بأنها كلمات مرصوصة وقافية فوق قافية .

ولم يترك ميخائيل نعيمة صديقه جبران غاضبا لصرخة الادباء المحافظين على اللغة في مصر حين عنفوه لاستهانته بقواعد العربية واصول البيان ، فرد نعيمة حملتهم على جبران بمقال عنيف نشره في كتابه«الغربال» وقد سمى صرخاتهم في نقد صديقه « نقيق الضفادع » .

وكان الفضل في ظهور « الغربال » على ضفاف النيل عام ١٩٢٣ للصحافي الاديب المتمصر محي الدين رضا (٦) الذي اعجب بأدب نعيمة واحب ان يعرف بمصر فطلب مقالاته النقدية لينشرها هو او يعهد لغيره بها واستجاب نعيمة لدعوته على أن يقدم الكتاب عمدة الادب والنقد عباس محمود العقاد الذي كان يصول ويجول في ساحة المعارك الفكرية . وكانت مقدمة العقاد كريمة في التأييد لمقالات نعيمة في « الغربال » مما أتاح لهذا الكتاب شهرة في مصر والعالم العربي وقد اعترف نعيمة نفسه بأن « المهجر » حيث كان يعيش لم يكن السوق التي يمكن الاعتماد عليها في تصريف كتاب من نوع « الغربال » او غيره من الكتب التي هي في مستواها الفكري والثقافي واللغوي فوق مستوى السواد الاعظم من المهاجرين (٧) .

وبقي العقاد على البعاد وفيا لميخائيل نعيمة فما من مؤلف قدمه للعقاد حتى سارع الى الثناء عليه والتنويه بموضوعه ومحتواه ، أما ميخائيل نعيمة الذي نشر غرباله الجديد عام ١٩٧٤ بعد دعوته لالغاء النقد عام ١٩٥٦ في مؤتمر الادباء فانه جمع في الجديد مقالات نقدية واعجابه بالذين جاملوه وأيدوه في شتى المواقف لكن لم يكن بينهم العقاد ، كما تدارك بعض الذين نال منهم بمجاملة ضئيلة وفيهم خليل مطران وأبو ماضي وعمر فاخوري وكرم ملحم كرم ، وعلى ان نعيمة تناول هذين الاديبين بوخزات ولمزات لا تخفى على القاريء المثقف .

وبعد فان « حباحب » نعيمة دلت على ثباته في رأيه بأدباء العرب الغابرين والمعاصرين اذ لم يجدهم مثل ادباء الغرب الذين تحدث بنبوغهم والقى محاضرات في سيرة بعضهم .

ولو رجع ميخائيل نعيمة بعد حباحبه الى الحق والواقع لرأي المصابيح العربية ممتدة في آفاق الشرق والغرب وقد ألقت انوارها على حياة الفكر والشعر ، وفي روائع الفنون والمعرفة لكن تفاضيه عنها كرها ومقتا بقي في لحمه ودمه لا يحسبها تليق بالانتماء والاعتزاز ، ويرحم الله العقاد بمقدار ما أوتي من الوفاء .

وداد سكاكيني

«١» جبران خليل جبران لميخائيل نعيمة ص ١٤٦

«٢» لايزال ميخائيل نعيمة ضعيفا في اللغة العربية،وكان الاصح ان يقول حفزته

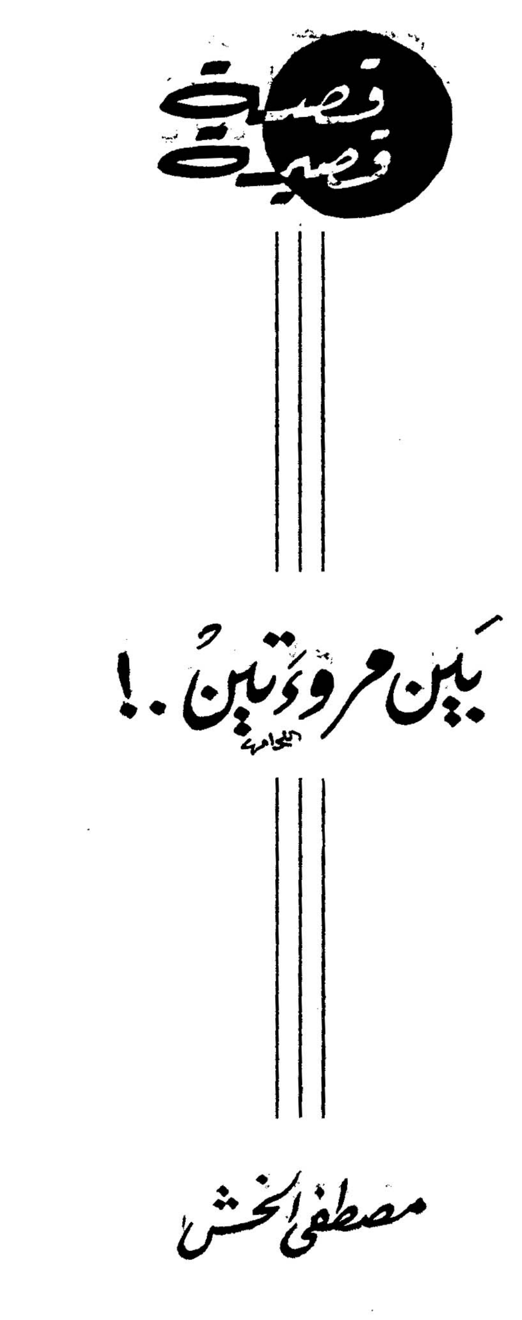
(٣) فلفتنا الانظار لا استلفتنا .

(٤) صحيحها أيدي .

(٥) الغربال لنعيمة .

(٦) لبناني الاصل وابن شقيق المصلح الكبير محمد رضا من القلمون — لبنان .

(٧) سبعون لنعيمة ص ٤٧١ .



مهداة الى روح الشاعر احمد الصافي النجفي الذين اختار عنوان هذه القصة . م .

سهروا طويلا في الافراح والليالي الملاح . وسهروا في السمر والتندر . كان الليل أقصر من النهار . ولكنهم أدركوا خطلهم فالليل أطول بكثير مما كانوا يظنون . وزاد في طوله انهم في وقفة الانتظار ، فما يطيقون صبرا .

انبطح عشرة من الشباب الشجعان وراء أكمة . عيونهم ، كالثعالب ، تحدق بمزيد من اليقظة والانتباه ، وأيديهم مشدودة الى زناد بنادقهم المصوبة . الهمس مباح والتدخين محرم ، فالستر من الاولويات في خطط الدفاع .

القمر في تمامه الا قليلا ، يحجب النجوم في كبد السماء الصافية ، كعروس في ابهى زينة ، تشرئب اليها الاعناق ، دون البنات من حولها ، انواره الفضية تضفي على الصحراء حلل البهاء والفتنة . عيل صبر احدهم فانشد بصوت ضعيف :

ياليل بدرك حاضر ياليت بدري كان حاضر

ضحك رفاقه فثنوا عليه :

ـ « كلنا في الهوى سوا »

ولم يضحكوا بعد ذلك أبدا . وبقي السكون يلفهم الى ان غاب القمر ..

اكتنف الغبراء دامس من الظلام . وتنفسوا الصعداء عندما هبت عليهم نسمات باردة ، جعلتهم يلتحفون بعباءاتهم . وصاحت الديكة ثم عوت الكلاب في مضارب قبيلتهم فتأكد لديهم ان الصبح قريب ..

كادوا يطرحون من مخيلتهم فكرة الغارة المرتقبة على قبيلتهم ، لولا أنهم أصاخوا السمع الى وقع اقدام تقترب منهم ، فاستبشروا بالغنيمة قبل الاياب ، وارهفوا حواسهم ، فالقادم واحد ، ولا بد أن يقع في شباكهم ..

نهض «بيغو » من فوره ، مستويا على قدميه وانتفض انتفاضة كلب خارج من الماء ، ثم اندفع نحوه كالسيل ، وبنبرة حازمة يخالطها الحقد والغضب .

ـ من أنت ؟

تهدج صوت ملائكي عذب :
ــ افرنقعوا عني : أنا يزيدية من جبل سنجار(١) واقصد مضارب الشرابيين ..

اصطكت ركبتاه لخيبة الامل ولكنه سعى نحو ايجاد بصيص من النور
ــ أليس وراءك رجال ؟
وبعفوية ساذجة :
ــ في غياب زوجي ، الرجال كلهم اخوتي .
عبر وفاقهعن خيبة املهمأيضا فصاحوا باستنكار واستخفاف :

ــ تو امرأة !

وولوا الادبار ، عائدين الى بيوتهم ، فليس لهم أن يتعرضوا لامرأة بسوء ، تسمر بيغو أمامها ، كعمود الهاتف ، وختم الصمت شفتيه .. ومع تنفس الصباح تعثر في طريق العودة ، وشردت امامه ، كالناقة ، زائغة العينين . تجاهل غرضها على الرغم من انها كانت تردد بالكردية كلمات يعرف مغزاها جيدا :

ــ ولدي .. حبيبي

ناداها متخابثا لكي يخفف من سرعتها :

ــ ماذا تبغين من مضارب الشرابيين .

ارجعت بصرها كرة الى الوراء ، مكسورة الخاطر :

ــ اني سائرة الى بيغو بطلب النجدة .
قطب ما بين حاجبيه :

ــ اوتقتلون القتيل وتمشون في جنازته ؟
وببراءة الاطفال

ــ زوجي قاتل ابن عمه . ومن غير اللائق ان يفتدى القتيل برضيع في حضن امه .

تعاظم بعنجهية :

ــ الرضيع وسيلة لا غاية .

---

(١) جبل سنجار في العراق على بعد خمسين كيلومترا من الحدود السورية الشمالية ، حيث مضارب الشرابيين .

وكمن فوجيء بوخزة ، فقد لا حقته عقدة الذنب عندما نطق بهذه العبارة .. عبثا تعقب غريمه ، خلال عامين . غزاه في عقر داره ، ليلة اول أمس . طار صوابه لانه لم يجده ،على السطح شاهد امرأة وقد تدلى ثديها ، وفي حضنها طفل كلاهما غارقان في النوم . الطبيعة ساكنة والبدر من عليائه يرسل عليهما انوارا فضية كاشفة حتى ليخيل اليك انك في حضرة العذراء تحضن المسيح . قلبه عار كالصخرة ، فلم يرق لهذا المنظر الجميل الذي يبعث على الرهبة والخشوع . سل الطفل من حضن امه ، كما تسل الشعرة من العجين ، وعاد به الى مضارب عشيرته. حسب ان والدهسيشن غارة مضادة لاسترداده . فأعد العدة ، وكمن له ، بانتظار ان يبلغ ثأره ويشفي غليله بنفسه .
جوى جوى شديدا عندما وقف امام خيمته . « الطفل ما ذنبه . وهل افتقدت رجولتي حتى اكتفي بالانتقام من أم وطفل .. »

نفذ صبرها فتوسلت اليه بحرقه :

ــ أريد بيغو
أجابها مطأطأ الرأس
ــ أنا هو بعينه

ارتمت على قدميه ، مولولة

ــ لا تباعد بيني وبين طفلي ولك مني ما تشاء

جلس القرفصاء ، وعيناه الى الارض ، كمن اقترف اثما ..

ــ طفلك بخير ارضعته من حليب البقر ولميرضع ثديا اخر .

ثم زعق في تهكم كمن ينفس عن كربه

ــ بئس اسلامكم ، معشر اليزيديين . تذبحون طفلكم اذا مارضع من غير نسائكم وتقدسون أبليسا وهو الشيطان الرجيم ..

● ● ●

جاءت زوجتاه بالطفل . في أعينهما شرر الشماتة والسخرية . المرأة نصيرة المرأة ضد الرجل ، في كل زمان ومكان .

غض طرفه في خزي . احتضنت الام طفلها واوسعته بالقبلات ثم كشفت عن ثديها المعبأ بالحليب . ولما كف عن الرضاع ، جهر صوتها بحنان دافىء :

ـ اقبلني عندك ، ادخل في دينك واكن لـك زوجة او خادمة ابلس عليه فلم يدر ماذا يصنع . ولكنه تلبس قلبا من الثلج ، فربت على كتفها ، بحركة ابوية حانية :

ـ هيابنا الى شيخ القبيلة ، يحكم بيننا

لبس الشيخ قناع العنجهية . فحملق في الحاضرين ، ومسح لحيته بأطارف انامله ، اكثر من مرة ، ثم استوى في مجلسه وتنحنح ، ثم تشدق بألفاظ كأنها علك الصوف :

ـ انها ملكة جمال ! ولك الثواب ان ادخلتها في دينك . وليس بضائرك ان تكون ثالثة زوجاتك .

استشعر مطرقة تهوي على قمة رأسه فزمجر غاضبا .

ـ استضعفتها فوصفتها

انتشى احد الحضور بخمرة السعادة ، فسعى الى هدفه بضحكة الطفل المدلل

ـ كلوها الي ، وأنا ادفع دية القتيل .

قاطعه بنبرة ، كأنها قرقعة السياط :

ـ الويل لمن يعترض سبيل اختي

أدار ظهره فلم يلق بتحية الوداع ، دلالة على عدم الرضى ، ومشت في اثره ، بعد ان استردت نظرة عينيها حيويتها فبدت كحورية تهبط من الجنان .

افترثغره عندما طرقت اذنيه مقالة احدهم :

ـ ليس منا من له مروءة بيغو !! ..

● ● ●

ضحك بجسمه وروحه . تصدرت المائدة وحولها زوجتاه . من عادة العرب ان لا تجلس المرأة والرجل على طبق واحد . اهتبل الفرصة فهرول بعيدا . عاد بعد نهاية الطعام وبيده قيادناقتين محملتين اربعة اكياس من الحنطة ، بالاضافة الى فرس اخرى ، لم تلبث ان امتطتها وطفلها في حضنها .

الشمس في كبد السماء ترسل شعاعا وهاجا ، فتزيد الصحراء لهيبا . وكأي من رجل ، في شرخ العافية ، لابد وان تستقظ غريزته ، في حضن الطبيعة لمجرد رؤية انثى من بعيد بله قاب قوسين او ادنى .

تفجرت انابيب الشهوة في جسده ، عندما اوقفت فرسها وحسرت عن صدرها . تدلى برعم الورد من نهديها ، فاكتظ فم الطفل بالحليب ، برز اديم بشرتها وكأنه الزبدة . تراءت له شفتاها فراشتين قرمزيتين ، وتصفح وجهها الجميل بعين طائر جارح .

أطبق جفنيه لحلم بديع . « الدنيا سعير ولكنها لا تخلو من متعة ، يجدر اقتناصها . التغيير جوهر الوجود ، فالوردة تفقد في الظهيرة ما كان لها من جمال في الفجر . احمق من لم يستمتع بماهو زائل بين يديه الخطيئة والعذاب في صلب الخليقة . القيم ، وهي محل الاكبار والاعزاز ، مختلطة بالشر .. »

زحف على عقله خاطر ، انفرجت له شفتاه ، فالشيطان لا بد وان يكون ثالث رجل وامرأة . تهلل وجهه عندما طافت بمخيلته نظرية الجاذبية الجنسية . من ينفذ بنظره الى انثى جميلة ، تنبعث من عينيه اشعة مغناطيسية ، تخترق ملابسها ، وتنجذب الى جسدها ، فيغدو بكليته مسحورا نحوها .

هبت نسمات من الهواء الطلق البليل ، في ذلك الجو الحار ، عندما رن صوتها ، مجلجلا

ـ النوم يغازل عينيك . وبالتأكيد فانك لم تنم خلال يومين كاملين . فهلا استرحت قليلا في حين ينام طفلي .

تململ لحظة ، كأن برغوثا قد لدغه

ـ لا راحة قبل ان تعودي الى ديارك

وقفز بفرسه ، كأنه جندب ينط على مروج من سندس خضر . وقد كبح جماح نفسه ، فتسامت طهارته بقوة الروح ، تساميا كبيرا جدا ، جعلته يدرك انه انسان مجتمع ، وان عليه الا يحيد قيد انملة عن ثقة هذا المجتمع به ، وقدرته على الاخذ بالثأر ، كما تقضي الاعراف والتقاليد .

● ● ●

الشمس آذنت بالغروب ، لاحت قرصا ابيض مسالما ، تولت عنه حيويته وبردت حرارته وانطفأ توهجه . في الليل الساجي امتدت صفحة السماء اللانهائية ، فوق رأسيها . وظللتهما الانفعالات الصافية التي تلائم الارواح السماوية .

وابدا لم يحسب حسابا للعودة ، فلما تبدت له بيوت جبل سنجار أدرك أنه عائد لا محالة . تراكمت عليه الهموم واكتسحته عاصفة من القلق والمخاوف فبدا كأنه قارب تعرض بغتة لاعصار . وأحس ان حلقه يلتهب بظمأ اليم . وبصوت كأنه صادر من بئر عميقة ، القى عليها تحية الوداع .

أجفلت ، هي الاخرى ، وسجع صوتها في أذنه سجعا جميلا :

أحسب انك لن تقتلْ بعل أختك بعد الآن .
وأردفت بانفعال :

لك مني ومن زوجي عهد بأن نكون لك صديقين وفيين بل عبدين مخلصين . وكل مانملك هو لك . فهلا استرحت قليلا لتنعقد راية الصلح ، كما تحب .

نفخ في قهر ، ورويدا رويدا ، انبعثت الحميا في دمه .

لاكنت بيفو ، ان رضيت بهذا الصلح الذليل . وتعيرني نساء عشيرتي ان قبلت بغير رأس زوجك بديلا
وهبته ضحكة قصيرة عذبة

الا مهلة لا عيد لك الفرس والناقتين
تلاطم قلبه بين الضلوع سكرا

انها هدية من أخ لاخته . وانها لكفارة لو تعلمين!
رن صوتها كأنه عزف الموسيقى في ضوء القمر :

نحن أسرى التقاليد البالية !

ثم أرسلت الدمع مدرارا . وعندما انكفأ الى الوراء سمعها تقول :

مثلك فليكن الرجال !

● ● ●

استلقى في فراشه ودفن في الوسادة عينيه الهامعتين ثم استسلم للرقاد في شخير متقطع . كان النهار في أوله ولم يستيقظ الا في صباح اليوم الثاني . هرعت اليه زوجتاه ، كدجاجتين مذبوحتين ، فهفت على نفسه نسمة راحة ، ولكن اوتار قلبه كانت منقبضة فلم يلحظها بغير نظرة مكفهرة ، اكفهرار السحاب المنذر بالمطر .

كان جائعا ، التهم طعامه بنهم ثم انزوى حول الموقد ، يتجرع القهوة المرة، فنجانا تلو آخر.. تشفط الدم من وجهه ، فجأة ، فهب كالملسوع وزأر كالاسد :

ماذا تبغي من مجيئك ؟

بسرعة البرق ، نثر القادم مئات الليرات الذهبية على الارض ثم لوى عنقه ، بعد أن اعطاه سيفا ، وتلعثم باهتياج

اني عبدك ، فاذبحني ، كما ذبحت ابن عمك . ولك مني فوق ذلك كل ما أملك .

نفس عن صدره المستعر بكلمات كالرصاص المنصهر

ـ لاتجلب علي عارا جديدا، فما اقتل ضيفي في عقر داري ، برقت عيناه لفرسه المربوطة ومعها ناقتاه محملتين بأكياس التين، وقد أنيختا أمام الخيمة .وكان لابد مما ليس له بد . ذهب به كالعادة الى شيخ القبيلة منظر الليرات الذهبية أسال لعابه كالكلب . أحصاها ثلاثمئة ليرة في العد . تناول حصته منها ثم مد يده بالباقي وبلسان كالسوط محملة أطرافه بنقيع السم :

اللئيم من لايقبل صلحا ، فلا تجادل في الامر

رد عليه بتحد سافر

ـ مثلي من لايبيع دم ابن عمه بمال الارض طرا

ورمقته عيون الحاضرين بالتقدير والاعجاب عندما شد على يمين خصمه :

انك أخي مثلما زوجتك اختي .

مصياف ـ مصطفى الخش



ياسين الفرجاني

حلمت كأنني في القدس بين منازل القدس
حيال المسجد الاقصى أدور موزع الحس
دخلت أقبل المحراب ... أقرأ آية الكرسي
صفاء راح يغمرني وروع زال عن نفسي
فصليت التي لم أدر من صلواتي الخمس

. . . . . .

هنيهات .. واذ أرتاد شط البحر من يافا
وألمح في المدى ما سد وجه الافق أطيافا
زوارق تعبر اليم وأطواقا وأطوافا
وأشرعة تمد الى عناق الموج أطرافا
ويصطبغ العباب دما بشيء فوقه طافا

. . . . . .

ومن بين الربا تنسل أشباح تناجيني
كأني قد تراءت لي مجازر دير ياسين
فمبتور ومنحور ومبقور بسكين
وصرعى « قبية » تنهد من خلفي ومن دوني
أنين عاتب التسآل ينشرني ويطويني

. . . . . .

وكان أبي يذكرنا بأن لنا هنا زرعا
علينا أن نصون الزرع .. ان عدنا .. وأن نرعى
رأيت الزرع ليمونا تطاول وازدهى فرعا
ومد جذوره في الارض يمتص الثرى ضرعا
حنان الارض .. ما ملت ولا ضاقت به ذرعا

. . . . . .

رهيب ذلك الصمت الذي سرعان ما ذهبا !
يشق سكونه في الحقل « تنين » قد انتصبا
يفح فحيح مسعور وترسل عينه لهبا
ويحضن حبة لفت على خرطومها الذنبا
تحدق فيّ .. ترشقني بنظرة آثم .. غضبا !

. . . . . .

مشى « التنين » والافعى الي وفي يدي خنجر
غدوت كأن بي مساً لكل مشرد أثأر
أوزع حقدي المكبوت في صدري لظى يسعر
فحينا أطعن « الافعى » وحينا أطعن « الاكبر »
وكدت أغيب لولا أن صوتا من عل كبّر ..

. . . . . .

هوى « نسر » على «التنين» مثل البارق الساري
حفيف جناحه رعد تغشى ليل اعصار
وصبت أذرع الليمون ألسنة من النار
تلف..تطوق «الافعى» وتشوي جلدها العاري
وتدنو ربوة مني وأبصر فوقها .. داري

. . . . . .

وبدد غفوتي همس ينادي ... نمت ياولدي !
أفقت..واذ على الرشاش مازالت تشد..يدي !
وفي عيني أبي أشتف ما قد دار في خلدي ..!
وردد.. آن أن نمضي فمافي الدرب من أحد ..!
هنالك..ملتقى الثوار .. عند مشارف البلد..!

ياسين فرجاني

الالتزام ظاهرة طبيعية

محمد الحامدي

الالتزام : هو توجيه النشاط الفكري والعملي لتحقيق هدف معين او مجموعة اهداف متلازمة ، ونستطيع من هذا التعرف ان نحدد اسس الالتزام وهي :

١ ــ الهدف : الهدف هو الدافع الاساسي للالتزام ، وعدم وجود الهدف او عدم وضوحه يفقد الالتزام مفهومه الصحيح ، وقد يكون الهدف مطلبا فرديا او جماعيا .. محسوسا او خياليا ..

٢ ــ التنظيم والتوجيه : يمارس الانسان نشاطات فكرية وعملية مختلفة قد تكون متناقضة وبالالتزام يتم تنظيم هذه النشاطات وتوجيهها لتحقيق الهدف ، واذا افتقر الالتزام الى التنظيم والتوجيه كان لا التزاما .

٣ ــ الوسيلة : لتحقيق الهدف لابد من استخدام وسيلة معينة ، مادية او ثقافية واذا اردنا تحديد اسس الالتزام بالمفهوم السياسي العقائدي ، لقلنا انها تتمثل في الاستراتيجية الثابتة والتكتيك المدن المتغير .

والالتزام تعبير شائع الاستعمال في مجالات عديدة وبمفاهيم مختلفة كقولنا : ان (فلان) متدين بمعنى التزامه بأفكار وطقوس دينية ، وان (فلان) لارأي له لانه محسوب على هذه الفئة او تلك .

والالتزام الحزبي هو أعلى اشكال الالتزام لوجود ضوابط وأسس تنظيمية تحدد اسلوب العمل والطرح الفكري ، وما ذهبنا اليه في اعتبار الالتزام ظاهرة طبيعية يشمل كل نشاط فكري واع ..

وسأتناول الالتزام في جانب من جوانب الادب (وهو الشعر) وأبدأ بهذا السؤال التقليدي : ماهو الشعر ؟

الشعر : هو التعبير بلغة فنية عن مشاعر تطفح في ذات الشاعر ، والتعريف نسبي ، ولتحديد الالتزام في الشعر لا بد من تجديد العوامل المكونة للشعر وهي :

١ ــ العامل الذاتي : اي الحالة النفسية للشاعر ومشاعره الداخلية ومن هنا كان استخدام تعبير (المعنى في قلب الشاعر) عندما يغم المعنى الظاهري للقصيدة .

٢ ــ عامل الموضوع : أي موضوع القصيدة ، وهو عامل خارجي ، لا شك ان الشاعر يعيش في بيئة طبيعية واجتماعية ومحكوم بعلاقات متشابكة ، ينفعل بها ويتفاعل معها وهي صفة كل كائن حي . فمن المؤكد ان موضوع القصيدة له ما يبرره في نفسية الشاعر .

٣ ــ عامل الاسلوب واللغة : الشعر فن من فنون الادب له قواعد متفق عليها واذا كانت هذه القواعد غير ثابتة ومقيدة فان حدا ادنى من الالتزام بها ، مطلوب ، فالشعر شعور تشاركه تعابير اخرى ، لا نحسبها من الشعر ، لخروجها على قواعد الشعر الشكلية .

من الواضح ان عامل الموضوع الخارجي هو الذي يحدد الالتزام بشكل اساسي ، لان الالتزام كما بينا هو توجيه النشاط الفكري والعمالي لتحقيق الهدف تولد القصيدة في شكلها المقروء .

فمن هو الشاعر الملتزم ؟

(كل شاعر ملتزم) !؟ .. وللالتزام درجات تماما مثل قولنا كل انسان فيلسوف لانه يبحث عن الحقيقة باسلوبه وبمستواه الثقافي .

فالشاعر ليس حياديا اذا قيمناه موضوعيا لانه مثقف وواع وله احساس شعوري غير عادي بالنسبة لغالبية الناس .

ولايضاح ذلك نعود الى الاساس الاول من اسس الالتزام وهو الهدف فالانسان (كل انسان) له مجموعة اهداف يريد تحقيقها وعندما تتوزع نشاطاته بدرجات متساوية لتحقيق الاهداف كلها دفعة واحدة ، يفقد صفة الالتزام عمليا .

وبقدر ما يستطيع الانسان حصر الاهداف الكثيرة في هدف واحد يجنح الى الالتزام بشكل واضح .. لان نشاطه الفكري والعملي يتركز في اتجاه واحد ، فالذي يرى في الدين خلاصا من مشاكله وتحقيقا لاهدافه يلتزم به ، والذي يرى ذلك في حزب ساسي يطرح نفس الاهداف التي يؤمن بها يلتزم به ، والادعاء بالحيادية لا يعبر عن الحقيقة ، اذ لو كان ذلك صحيحا لجاز لنا ان نقول : ليس للحيادي اهداف يريد تحقيقها او انه يريد تحقيق كل الاهداف المطروحة في العالم رغم وجود تناقضات كبيرة بينها ..

وهنا قد يحدث التباس بين مفهوم الالتزام السياسي والالتزام الفكري ... فالالتزام السياسي بمفهومه الدارج ، التزام الانسان بحزب معين ، يقيد نشاطه بما يحقق وحدة الحزب الفكرية والتنظيمية . أما الالتزام الفكري فهو التزام الانسان بالمدافعة عن فكرة معينة دون تقييد من أي جانب في المجتمع .. ورغم ذلك هناك تلازم بين الالتزام الفكري والسياسي . فكثيرون يحسبون على احزاب معينة وهم غير منظمين وهذه حقيقة معروفة في كل احزاب العالم ..

فهل ما ذهبنا اليه في هذا الطرح العام (الالتزام ظاهرة طبيعية) صحيح بدون استثناء ؟ لازلت عند هذا الطرح ، فالشاعر انسان يشارك الآخرين في احساسهم بالواقع وله انتماءات عديدة لا يمكن تجاهلها ، فهو ينتمي الى عائلة معينة وينتمي الى طبقة معينة وينتمي الى طائفة معينة وينتمي الى امة معينة فاذا تجاهلنا هذه الحقيقة ابتعدنا عن الواقع ، والشاعر مثل اي انسان يريد تحقيق اهدافه في هذا الواقع الذي يعيشه فيظهر التزامه بشكل واضح من خلال نشاطه لتعزيز انتمائه الى فئة معينة من تلك الفئات . فالشاعر الملتزم بطائفة دينية ، قد يطغى على شعوره هذا الالتزام فينفي التزامه بالامة التي ينتمي اليها .. ولكن اذا تعرضت امته لمكروه سيظهر التزامه القومي من خلال مزيج ثنائي بين الطائفة والامة .

متى ظهر الالتزام ؟

الالتزام كظاهرة ادبية مرادفة لمدارس الادب المختلفة لاتمتد جذوره ابعد من القرن الثامن عشر ولكنه كظاهرة طبيعية لم تفارق الانسان منذ ان اصبح اجتماعيا . وهذا المفهوم يقودنا الى مفهوم قريب من الالتزام وهو الانتماء .

فالشاعر كما مر معنا ينتمي الى عائلة معينة الى طبقة معينة الى طائفة معينة الى أمة معينة وقد يتجاوز كل هذه الانتماءات ليعيش في دوامة الانا والفردية او الانسانية بكل أبعادها .

فالمتنبي كشاعر كان ملتزما ، وقد دفعه طموحه الذاتي الى درجة انطباق شهرته الذاتية على كنيته ، وقد قتل بسبب التزامه بما قاله في قصيدة منها البيت:

الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فالمتنبي اسقط كل مظاهر الانتماء من ساحة شعوره ، الا انتماءه الى ذاته وعندما كان يمدح سيف الدولة كان يمدح نفسه ، ورغم ذلك لم ينس انتماءه الى امته عندما كان يرى الآخرين يتحكمون في مقدراتها، وكلنا نتذكر قولته الشهيرة (لا تفلح عرب ملوكها عجم).

وأبو العلاء المعري كان ملتزما بطائفة الاسماعيلية (الباطنية) ولو حللنا اشعاره ومقالاته لخرجنا بنتيجة واضحة عن التزامه باتجاه معين . الاعتماد على العقل ورفض كل الاطر الدينية المزيفة . وقد وصل في اشعاره الى حد الكفر ظاهريا .

وابو نواس : شاعر الخمرة والمجون كان ملتزما ، فخروجه على النسيب والوقوف على الاطلال، في قصائده بل محاربته لها كقوله :

قل لمن يبكي على رسم درس
واقفا ماضر لوكان جلس

كان يريد تغيير القواعد التي تقيد الشعر ، وقد انعكس ذلك على سلوكيته فخروجه على اعراف المجتمع والتصريح بذلك هو التزام عملي بالثورة على الواقع المقيد باعراف المجتمع والعادات والتقاليد ورقابة الدين .

والثورة في حد ذاتها التزام ، لان لها اهدافا محددة والا لاعتبرناها فوضى وصراع (شكل من اشكال الحروب) .

ولن آتي بأمثلة اخرى فشعراء الجاهلية كانوا ملتزمين بالقبيلة ، لقد اخذت الالتزام في الشعر كمثال لا الحصر ،

وقد بينت أن الانتماء شكل او مفهوم قريب من الالتزام وهو يسبق الالتزام لان الالتزام هو الشكل الواعي للانتماء ، ويأتي هذا في مرحلة متأخرة عن الانتماء الذي ترعرع في مفاهيمه الشاعر او الاديب .

لم اناقش الموضوع من حيث نوع الالتزام ، او افضلية التزام على أخر انما اردت ان اعرض هذا الموضوع للمناقشة لتحديد المعنى الدقيق للالتزام وبعدها يمكن ان نحدد اهداف الالتزام .

دمشق ـ محمد الحامدي



هند هارون

مهداة الى روحك ـ يا عمار ـ في عيدك الثامن عشر

« خذ حياتي » ليتها كانت فداء للقـــدر
« خذ دمائي » ليتها الترياق ·· يجتاح الخطر
« ملء عيني » دمعها نار ·· وقد غام البصر
« مل قلبي » نبضه دفق لآلام البشـــر
عيدك اليوم ·· عذابات فلى وقع الوتـــر
عيدك الاوصاب ذرات ·· على عين الزهر
وأنا ·· في غربة الانسان ·· انسان عبر

★ ★

يا وحيدي ·· كنت في صدري وعيني الشعاع
وانا أحياك ·· يا عمار ·· في دنيا الصراع
لم يلح لي بعد ان جزت الدنا ·· الا الضياع
وغبار الارض ·· شد الناس ·· اغرى بالمتاع
غير اني عندما ادعوك ·· ينـــزاح القنـــاع
وارى طيفا حبيبا ·· جاء مفتوح الـــذراع
وأحس القبلة الحرى ·· وكم اخشى الـــوداع
ثم تمضي ·· في سفين الله ·· مرفوع الشراع

★ ★

آه ·· ما أقساك يا عمار ·· في ليل المحـــن
آه من ضعفي ·· وقـد قـاومت اعصـار الزمـن
تنزف الالام ·· انسانيتي ·· تأبى الوهـــن
وأرى الصغرى ·· صغار النفس ·· في أرض الفتن
وأرى الايمان ·· في الاعماق ·· حقا مرتهن
وشموعا ·· تجعل الظلمة ·· دربا مؤتمـن
غير اني ·· امك الثكلى ·· وقد كنت المجن
وكياني ضائع ·· لم يبق ·· في صدري ·· سكن

★ ★

كلما ·· لملمت ·· جرح الموت ·· في نفسي الابيه
كلما ·· هدهدت آلامي ·· بألحان خفيـــه
وزرعت الصبر في صدري ·· وقاومت المنيـه
ورسمت البسمة الحيرى ·· بألوان نديـه

ومسحت الدمعة الوجلى ٠٠ واخفيت الرزيه
وتقبلت القضاء السمح ٠٠ بالنفس الرضيه
شعشعت روحي ٠٠ بنور الحق ٠٠ أدركت القضيه
ورأيت الله ٠٠ في الاعماق ٠٠ قدست الهديه

★ ★

لم تغب عني ٠٠ وقد اوقدت في صدري الحياة
انت حي ٠٠ في ضمير الكون وضاء السمات
انت حب ٠٠ عاطر الانسام ٠٠ حلو الذكريات
كنت « يا عمار » في قلبي وفي روحي صلاة
وغدوت اليوم في الآفاق ٠٠ بين النيرات
كلنا يفنى ٠٠ ويبقى الحرف في الدنيا ٠٠ صلات
بين من بانوا ٠٠ ومن يأتون ٠٠ وحيا للثقات
وأنا حرف ٠٠ يغني الناس ٠٠ حب الامهات

★ ★

أسكب الاحزان في شعري ٠٠ رحيقا للزهور
تزهر الاحزان في روضي ٠٠ وتنداح العطور
وأرى في حقلها الريان ٠٠ آثار السطور
ترسم الالوان للاجيال ٠٠ في الروض النضير
« عمر ميلاد الصبا روحا » ٠٠ وما اندى العبير
هل ترى ٠٠ تحكي حروف الشعر أحزان الصدور
هل ترى ٠٠ تروي لكل الناس ٠٠ أعماق الشعور

كل عيد ٠٠ يا وحيدي ٠٠ غصة القلب الكسير

★ ★

يا وحيدي ٠٠ كيف أقضي العيد والاحزان وردي
ورفاق الامس غابوا كلهم يشكون ٠٠ وحدي
لا ضجيج اليوم ٠٠ في بيتي ولا الافراح عندي
موكب الاصحاب ٠٠ كان القول ٠٠ في أخذ ورد
صخب ٠٠ يحلو ٠٠ ويندى في دعابات التحدي
موكب الاصحاب عرس كيف احيي العرس عندي
صمتت أوتار موسيقاهم ٠٠ ضيعت رشدي
ولمحت العيد ٠٠ في العلياء ٠٠ في جنات خلد

★ ★

عيدك الثامن ٠٠ بعد العشر ٠٠ يزهو في السماء
كل نجم ٠٠ يجتليك اليوم ٠٠ في قلب الضياء
لم تعد لي ٠٠ يا حبيب الروح ٠٠ اصبحت الوفاء
في عيون الشعر ٠٠ في الالهام ٠٠ في نبع الصفاء
روحك الوضاء روحي ٠٠ في قلوب الاصفياء
وربيع العمر ٠٠ زهر الحب ٠٠ في حقل الرجاء
وزهور الحب ٠٠ في عينيك ٠٠ ألوان الوفاء
انت تحيا ٠٠ في ضمير الناس ٠٠ حبا واحتواء

اللاذقية ـ هند هارون



عبد الله الطنطاوي

الاقطاع الفكري وآثاره

الدكتور عبد الحي دياب ، ناقد عربي من مصر ،اخترمته يد المنون ، وهو في ريعان الشباب ، كان ذا حس نقدي مرهف ، وذوق أصيل ، تعضدهما ثقافةنقدية واسعة ، وجرأة في الحق عجيبة . قدم الى المكتبة العربية عدداً من المؤلفات النقدية من ابرزها : « القبليةالنقدية » التي أثارت ضجة كبرى في أوساط الادباء ولفتت اليه أنظار كبار المثقفين العرب ومن هذه المؤلفات القيمة : « الاقطاع الفكري وآثاره » الذي كتبه قبل حرب حزيران ، ولم يتمكن من نشره الا بعدها .

يتألف الكتاب من خمسة فصول ومقدمتين : الاولى من تقرير كتبه الدكتور مندور عن الكتاب والثانية بقلم المؤلف ، بين فيها ضرورة تصفية الاقطاع الفكري كما صفي الاقطاع المادي ، لانه أخطر منه ، اذ لا يمكن أن يتاح للدولة فرصة السير نحو الامام ، ما لم تتخلص منه . وقد قص فيها العثرات التي لقيها الكتاب وهو يسعى الى النور ، لانه تعرض لكثير ممن هم لا يزالون في مراكز القوة في الدولة . وقد استقى مادة كتابه من ثلاثة مصادر :

١ – ما سجلته الصحافة المصرية من معارك نقدية وما اخرجته المطابع من نتاج فكري .

٢ – معرفته لكثير من الادباء والمفكرين .

٣ – مشاهداته طوال حياته الصحفية .

وقد عرف المؤلف أن كتابه هذا سيلقى القليل من المدح ، والكثير من القدح ، ولكنه لن يبالي . يحدد في الفصل الاول (نشأة الاقطاع الفكري) مفهوم هذا الاقطاع الذي يأتي لمن حصل قدراً من الثقافة ، حينما يقطع الطريق على أي مفكر آخر ، وذلك عن طريق هيمنته على بعض المؤسسات الثقافية ، أو يفرض آرائه ومعتقداته على الناس . « والاقطاع » على هذا الوان شتى ، تبدو في أكثر من صورة ، كما تبدو في أي مناسبة ، وفي أي مؤسسة ، أو في أي صحيفة او مدرسة أو غير ذلك ... » .

ويرجع نشأة هذا الاقطاع – كالعادة – الى الاستعمار منذ الاحتلال العثماني، فالفرنسي، فالبريطاني اذ كان من مخططات الاستعمار الانكليزي مثلا ، افساد التعليم بتخريج الموظفين الذين لا يصلحون للقيادة الفكرية ، بل يكونون الات في ايدي رؤسائهم .

ومن مظاهر الاقطاع الثقافي ، محاولة الانكليز واشياعهم ، القضاء على اللغة العربية ، زاعمين انها سبب تأخر المصريين في الابتكار الادبي والعلمي ، ولكن فألهم خاب ، عندما تنبه الادباء الى الاخطار المحدقة بلغتهم الحبيبة ، فشرعوا ينافحون عنها .

ويقف الكاتب عند الصراع الحزبي في مصر الذي جرف نفراً من المثقفين وأفسدهم كشوقي والجارم ، اللذين وقفا حجر عثرة في طريق الشباب ، بعد ان ارتبطا بالقصر . ويشيد هنا بمواقف الشجاعة التي وقفها العقاد ومندور .

وفي الفصل الثاني (الاقطاع الفكري في التعليم) يتناول الدور الخطير الذي ينبغي ان تنهض به وزارة التربية ، وواقع هذه الوزارة ، القائم على الاحقاد والمحسوبيات ، دونما مراعاة للمصلحة العامة ، فالمازني ينقل من مدرسته ليدرس في مدرسة لا أهمية لمادته فيها ، لسبب تافه ، وهو انتقاد شعر حافظ ابراهيم

نديم الوزير آنئذ ، مما جعله يستقيل من التعليم .

ويسلط الاضواء على الزوايا الميتة التي يتم فيها انتقاء الكتب المقررة ، كما يشجب الروتين في عملية التفتيش التي تقبر المواهب وتجمد العقول المفكرة الخلاقة ، ، ثم يلح على ضرورة تأهيل المدرس تأهيلا تربويا واكرامه والحفاظ على حرية التصرف لديه في نشاطه الفكري خارج المدرسة .

ويرجع نشوء الاقطاع في الجامعة الى الدكتور طه حسين ، فقد استخدمه مع الدكاترة : أحمد ضيف ونجيب البهبيتي الذي زهق الحياة في جامعات مصر . فانتقل الى المغرب ، وتجنس بالجنسية المغربية . ومع محمد غنيمي هلال ، ومندور .

وفي الفصل الثالث : (الاقطاع الفكري في الثقافة) يجد الطامة الكبرى في الصحافة التي تركز على العاصمة وتهمل الارياف ، ويعيب عليها اهتمامها بالرياضة والرياضيين على حساب الفنون الاخرى ، وملاحقتها لاخبار مطربة رقيقة وعودتها الى زوجها ، وتزيينها صفحاتها الاولى بالصور الخليعة العارية ، ونشرها المذكرات التي تحض على الرذيلة والفساد ، كأنه ليس من وظيفة الصحفي ان يخدم مصالح الجماعة الانسانية .

ويرى الاقطاع متفشيا بين الشيوخ والشباب ، فالشيوخ اقطاعيون للفكر في راي الشباب والشباب عابثون ــ في راي الشيوخ ــ ينزعون الى الضحالة والسهولة في المضمون والتعبير عن تجاربهم الادبية . ويحاول انصاف كل من الشباب والشيوخ ، بدعوتهم الى تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص .

وفي الفصل الرابع : (آثار الاقطاع الفكري) يحصر مظاهر هذه الاثار بالتالي :

١ ــ العصبيات المعهدية التي هي ثمرة من ثمرات الاستعمار .

٢ ــ الفردية او انعدام روح الفريق . وهذا ما أدى الى نشأة القبلية النقدية والفكرية ، فنشأت الشلل والعصابات في الحياة الفكرية والادبية التي عانى منها النقد والفكر الصاب والعلقم اذ بتنا نرى نقد هؤلاء وأولئك متأثرا بالصداقة الشخصية ، أو الروح الحزبية والعقائدية مما زلزل القيم النقدية واهدر مبدأ تكافؤ الفرص ، والبقاء للاصلح .

٣ ــ المصادرات الفكرية . وتعتبر من أشنع آثار الاقطاع الفكري لانها تقضي على ذوي الاصالة والعبقريات المبدعة ، على مذبح التهريج في مجالات الفكر والادب . ويضرب لذلك مثلا بمصادرة طه حسين لزميله وصاحب الافضال عليه الدكتور احمد ضيف حتى اضطره للمحاضرة فيما سرقه الدكتور طه في كتابه (في الشعر الجاهلي) من تفكير المستشرق (مرجليوث) دون ان يعزوه الى صاحبه .

٤ ــ خدم الفنادق ، ممن لا رأي لهم ، وكل شيء عندهم عظيم ، يهتفون للمقبل والمدبر ، والقاعد والقائم والحي والميت ، والحقير والعظيم . ويرجع سبب ظهور هؤلاء الى المصادرات الفكرية التي تعرض من لا سند له الى ألوان من الايذاء ، يوقعها عليها ذوو الرئاسات ومشايخ القبائل النقدية والفكرية .

ويلحظ الكاتب تضعضع اتحادات الكتاب والادباء وعجزها عن اداء مهامها ، ومنها الدفاع عن الكاتب ضد رؤسائه العاجزين فكريا ، القادرين على تدبير المكائد والدسائس التي تدمره نفسيا ، وتقعده عن ان يمارس مهامه وهي ان يصدع بالحق ويدعو الى الخير والجمال دون مبالاة او خوف ...

وفي الفصل الخامس والاخير يتحدث عن دور الشباب بصفة عامة وعن موقفهم من قضية الاقطاع الفكري بخاصة ، الى ان ينتهي به المطاف الى طرح المتمثل في العمل على خلق روح الفريق بين المواطنين ، عن طريق التربية القويمة التي تهدف الى بث الروح الجماعية على مستوى الدولة .. وبدون هذا الحل ستنشأ الشبيبة على الفرقة والانقسام اللذين نراهما في الاجواء الادبية والفكرية والى هنا ينتهي به الحديث عن الاقطاع الفكري وآثاره .

وقد اتضح لنا مما تقدم ــ فيما أحسب ــ خطورة هذا الكتاب الذي كلف صاحبه من امره رهقا وهو يعاني من ضروب الاذى ، ينزلها به أكابر مجرمي الاقطاع الفكري في دنيانا ..

رحم الله الدكتور دياب فقد وعد فيما قدم لنا من نتائج فكري ونقدي ، بأن يكون ذا قدم راسخة في ميادين النقد الاصيل ، يهدم من جهة ليبني من جهة اخرى دون أن يصيبه وهن او يطرأ عليه تزييف ، حتى وهو لا يجد من التزييف مناصا .

عبد الله الطنطاوي

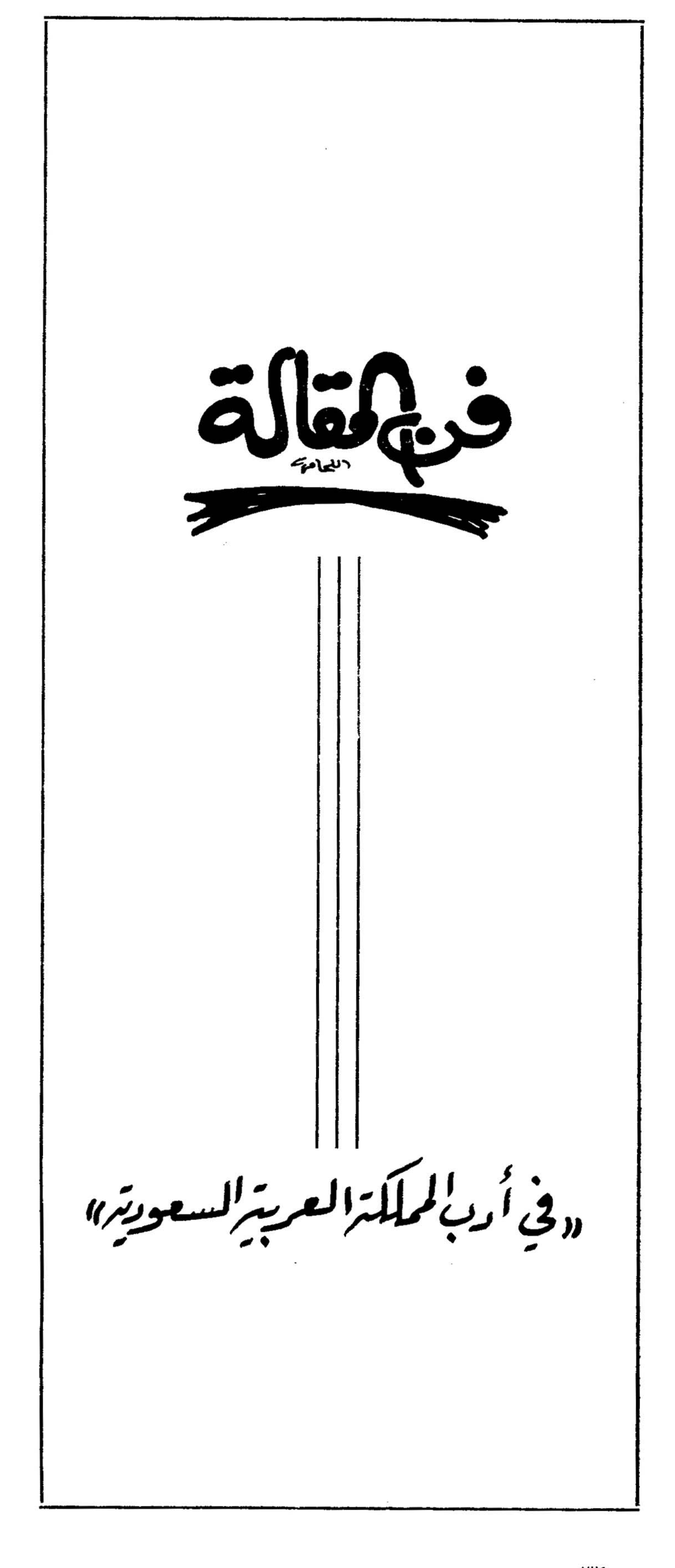
المظلّة..

محمد الحريري

حـــين أشـرعت المظلـة للسمـاء المستهله
قـد تخـوفت وحقـا أن تخـاف المـاء شعله
فتجمعت لهيبـا تحـت أفيـــاء المظلـه
غصن نـــار قـد تحـدى شبق الغيث المولِه
فانبرى الاعصـار يرمي في مهاوي الجـو ثقله
حامـلا شـوق الغيوم الغـر للحسن المؤلـه
تتمنى قطـرات منـــه لـــو فـازت بنهله
هي ظمآى رب مــاء ظـامىء لـم يـرو غله
وتسيرين ويـــأبى الغيث اذعانـــا وذلـــه
فأثـــار الريــح حتى حشدت في الافــق حمله
وطغى منهــا هبـوب هـز أركـان المظله
قـــد لواهـا لامـام فـأراني الشعر غزلـه
وثناهـا لـــوراء فنشقت الثغـــر فلـــه
أنـــا خلف الريـح زاو مختف أرقب غفلـه
هـو وقت الغنم لا عـاش الذي لـم يستغله

وتوالـين التثني نقلـة في اثـــر نقلـــه
تحذرين المـاء • مـات المـاء محروم التعـله
مـا أجـل الخطـو أن يلمسه مـا أعظم فضله
رب خطـو رد للمــــاء حيـــاة مضمحلة
وتهاوى مـــارد الريـح على الزنـــد فحلـه
خاطفـا شمسية الحسناء في مجهـول رحلـه
سـامحـا للمطـر المحـروم أن يفعل فعلـه
فتغشاهـا الـى أن بلهـــا أمتـــع بلـه
لم يدع في الثغر صبغا لم يزر في العـين كحله
مشهـد قـد ذل حتى عـاود الصحـو مطله
فـانحنى يمسـح عنهـــا ويواسيهـا بقبله
هامســا لا تعبئي بـالغيث ان الغيث أبلـــه
وتعـالي ، عشت للصحـو تساميـه ونبلـه
فأجابتـــه وغابـــا نقلـة في اثـــر نقلـه
وعليهـــا شهقـاتي نسجت منهـــا مظلـه

محمـــد حريري



المقالة فن ادبي حديث النشأة ، ومن اكثر الفنون الادبية ملاءمة لروح العصر ، لذا فهي تحتل مكـــان الصدارة على سائر الفنون الادبية الاخرى ، من قصةاو مسرحية او رسالة او خطابة او شعر.وقد نشأت بشيوع الصحافة على يد الكاتب الفرنسي ـ ميشيل دي مو تتين ـ في اواسط القرن السادس عشر الميلادي .ثم تطورت على يد الكاتب الانكليزي ـ فرنسيس باكـون ـ في أواخر تسعينات القرن السادس عشر نفسه ، فشغف الناس بها واحبوها ..

وأما المقالة في ادبنا العربي فيقول الاستاذ محمد يوسف نجم ـ ارتبط تاريخ المقالة في ادبنا الحـديث بتاريخ الصحافة ارتباطا وثيقا . وانها لم تظهر في أدبنا اول ما ظهرت ، على انها فن مستقل ، بل نشأت في حضن الصحافة واستمدت منها نسمة الحياة منذ ظهورهـــا وخدمت اغراضها المختلفة ، وحملت اراء محرريهـــا وكتابها ، ولذا كان لزاما علينا ان نبحث عن تطور المقالة في الصحف اليومية أولا ، ثم في المجلات مع تقديـــر الفوارق الهامة بين انواع المقالات التي تكتب في الصحف أولها ، وتلك التي تكتب للمجلات ـ .

ولو اردنا استعراض فن المقالة في ادب المملكـة العربية السعودية لوجدنا انها نشأت في كنف الصحافة ومرت خلال تاريخها بأطوار اربعة حسب رأي الدكتور بكري شيخ امين في كتابه ـ الحركة الادبية في المملكة العربية السعودية ـ .

١ ـ أولها : طور المدرسة الصحفية الاولى،ويمثلها الصحف العثمانية وبعض الكتاب في نجد والحجاز وبرزت في هذا الطور ، المقالة السياسية ، والمقالـــة الدينية ، اكثر من الانواع الاخرى ، وكانت اكثر عافية من غيرها ..

٢ ـ وفي الطور الثاني ظهرت مدرسة ـ القبلة ـ وقد تأثرت في هذا الطور بـ ـ فؤاد الخطيب ومحـب

الدين الخطيب ، والكتاب السوريين والمصريين الذين عملوا في جريدة ــ القبلة ــ ، وقد تحللت المقالة من قيود السجع وظواهر الضعف نهائيا ، وانطلقت في ترسل لا تقيده زخارف ، ولا تحده رواسم • وكانت المدرسة الاولى التي علمت أبناء الحجاز خاصة والسعودية عامة الفن الصحيح لادب المقالة شكلا ومضمونا •

٣ ــ وفي الطور الثالث ظهرت طلائع الصحف السعودية الفردية ، ثم كثرت عددا ، وكان اصحابها هم ادباء البلاد كتابها ، وشعراؤها • وكان لهذه الصحف الفضل الكبير على الادب والادباء وفن المقالة بوجه عام وان عز المقالة وازدهارها كان من نتاج هذا الطور ، فهو الذي رفع مكانتها ، وهو الذي اوجد الاقلام وغذاها ودربها •

٤ ــ وفي الطور الرابع تأرجحت المقالة بين تيارين اثنين •• قديم وحديث •

أ ــ أما التيار القديم فيعتبر استمرار للمرحلة السابقة ، المتمثلة بكبار الكتاب الفحول •

ب ــ واما التيار الحديث فانه يتمثل في الكتابات الجديدة التي بدأت تطل برأسها من هذه الصحف ، وكان اصحابها من الشباب الناشئين الذين لم ينضجوا النضج الكامل •

واذا تساءلنا عن الموضوعات التي دارت حول المقالة في مختلف اطوارها ، طالعتنا المقالة الدينية ، في رأس القائمة ، فالمقالة الادبية ، فالنقدية ، فالاجتماعية فالسياسية ، فالاقتصادية •• ثم تأتي في اخر القائمة ، مقالات ذات موضوعات متفرقة ••

١ ــ المقالة الدينية :

ان المواضع الدينية هي الرئيسية للمقالة في جميع اطوارها الادبية •• ولها مكان الصدارة من كل صحيفة فالمكانة الدينية لتلك البقعة المقدسة من العالم حمل اصحابها من الادباء شعورا بالمسؤولية تجاه العرب والمسلمين في كافة انحاء العالم ، لذلك نمت المقالة الدينية وتشعبت اكثر من غيرها من انواع المقالة الاخرى •

واخذت هذه المقالة الدينية تدور حول شرح دعوة الشيخ ــ محمد بن عبد الوهاب ، وتفسير تعاليمها ، وتوضيح اسرار الشريعة الاسلامية السمحة في قضايا العبادات والمعاملات والامور العامة ، ومهاجمة البدع الدينية التي لا تمت الى صلب الدين ، وتبين هذه المقالات الدينية انه لا سبيل الى معرفة العقيدة والاحكام وكل ما يتصل بها اجمالا وتفصيلا واعتقادا واستدلالا الا من القرآن الكريم والسنة الشريفة المبينة له والسير في مسارهما ، فما يقرره القرآن الكريم وما تشرحه السنة الشريفة مقبول لا يصح رده •

ومن اشهر الذين كتبوا في المقالة الدينية الاستاذ ــ محمد احمد باشميل ، فقد الهب ضمائر الناس بجودة ما كتب وخطب واذاع ثم جمع ما كتبه وكل ما اذاعه وما حاضر به في كتب خاصة نذكر منها :

ــ القومية في نظر الاسلام •

ــ صراع مع الباطل •

ــ لهيب الصراحة • يحرق المغالطات •

ــ اسكات الرعاع بأدلة تحريم الغناء والسماع •

أما الشيخ ــ حسن عبد الله آل الشيخ ــ وزير

التعليم العالي ، فله الباع الطويل الذي لا يجحد فضله في ميدان المقالة والابحاث الدينية التي ينشرها مسلسلات من وقت الى اخر ، يوضح فيها امور العقيدة ويشرح فيها وجهة نظر الاسلام في كثير من المجالات التي لا يطالها الا قلم كقلمه ، كمقالاته المشهورة مثل :

ــ هل نحتفل بالمولد ؟

ــ الاسلام لا يبيح لنا الاحتفال بهذه الايام •

ــ بدعة الزيارة الرجبية •

ــ المرأة •• كيف عاملها الاسلام ••

وكثير غيرها من المقالات ••

وعلى سبيل المثال لا الحصر لا ننسى ما كتبــه الاستاذ ــ زيد بن فياض من مقالات كثيرة وكتب متعددة استهوت قلوب المسلمين وانصرفوا اليها ينهلون مــن مواردها ويعملون على جمعها في كتب اهمها :

ــ في سبيل الاسلام ••

ــ صور من الجهاد

ــ من كل صوب •

ثم ما جاء به الاستاذ الجليل ــ احمد عبد الغفور عطار من مقالات متعددة نشرها في ــ عكاظ ــ وغيرها ثم جمعت في كتاب ــ الاسلام طريقنا الى الحياة ــ •• يتحدث فيها عن اسرار الشريعة الاسلامية وقضايـــا العبادات والمعاملات • وتلقى مقالاته قبولا من جميــع المسلمين على السواء لما امتازت به من حرية وجرأة وبعد عن التعصب ، وسلوكه فيها المنهج العلمي في البحــث وعلى الاخص مقالة ــ توحيد اول رمضان ــ وما جاء فيه • ومقالة عن الحج ــ المؤتمر الكبير في الاسلام ــ •

هذا غيض من فيض ، وكتاب المقالة الدينية مــن الفكر والادب في السعودية اكبر من ان تتسع لهــم في هذه الالمامة عن المقالة في ادب المملكة العربية السعودية •

لقد كثرت الدراسات الاسلامية حتى افردت لها معظم صفحات الجرائد ثم جمعت هذه الدراســـات وصنفت في كتب خاصة حفظا لها من الضياع •• ومـا زالت تتقاطر اعدادها لتحتل جانبا كبيرا متميزا مــن رفوف المكتبة في المملكة العربية السعودية ••

٢ ــ المقالة الادبية :

وتأتي بالدرجة الثانية من حيث الاهمية بعد المقالة الدينية ، وهي تبحث في القضايا الادبية بصورة عامــة وقضايا العرب بصورة خاصة وقد بدأت اول ما بدأت بدايات ضعيفة لكنها ما لبثت ان استمرت وانتصب عودها واخذت تلعب دورا بارزا في السوق الادبية ، وعرض الافكار والتطلعات التجديديـــة في الادب ، واشتدت المعارك الادبية والخصومات بين الكتــاب ، لكن مقالات الفحول ظلت بسمتها الهادىء المعروف تحث الشباب على المطالعة لتقوى أفكارهم وتستقيم اساليبهم ، وتتحدث تلك المقالات عن الدور العظيم الذي على الادب ان يؤديه في اصلاح المجتمع وبنـاء الدولة •

ولم ينس اصحابها ان يتعرضوا لابحاث لغويــة ويديروا مناقشات حادة بين الفصحى والعامية وما الى ذلك من مواضيع ادبية ترسم للادب السعودي الحديث طريقه الواضحة وتضع له المقومات الصحيحة وتتناول قضايا التراث العربي الحافل بالروائع من كل فــن •

وكذلك بحثت وسائل النهضة العلمية في البـــلاد وتطويرها ، والسير في دروب البناء الادبي الذاتـــي للملكة العربية السعودية المتميز •

٣ ـ المقالة النقدية

ظهر في المملكة العربية السعودية بعض النقـاد من ذوي البصيرة الواعية الذين يضعون القواعـــد والاسس النقدية الموضوعية دون ان يكون لهواهـم أي اثر على نقدهم ، فهم يرون ان النقد رسالة لا تقل شأنا عن رسالة الادب أهمية ، بل تهدف الى غربلـة الادب واصلاحه ووضعه في المكان الذي يجب ان يكون فيه ، فكانت مقالاتهم النقدية معرضا لتوجيـه الادب واقالته من عثاره •

٤ ـ المقالة الاجتماعية :

عالجت المقالة الاجتماعية كل ما كانت تئن فيـه الامة من امراض اجتماعية تراكمت عبر العصـــور • فانصرف الادباء يحاربون على مختلف الجبهات بأسنة أقلامهم ويدعون الى التمسك بالمثل العليا ومبـــادىء الدين الاسلامي الحنيف • ودعوا الى تحصيل العلـم والمعرفة لكشف الغمامة عن العيون والقلوب وتنويـر العقول بنوره •

واختلفت اساليب الكتاب فمنهم ، من استخـدم الاسلوب الفكه الساخر في نقده ، ومنهم من يسلـك درب الجد بعيدا عن الهزل والسخرية ، ومنهم من يجنح الى الاسلوب الخطابي او الطريقة الوعظية •

٥ ـ المقالة الاقتصادية :

وهي نوع من المقالات التي تهتم بالقضايا الاقتصادية من تصنيع وبناء وتوفير واسراف وادارة عمل • وقد حاول بعض المتخصصين بالاقتصاد حل بعض القضايا المعيشية ، ومعالجة القضايا الاقتصادية في البـــلاد السعودية ، وأخذ هذا النوع من المقالة يرتقي في الفترة الاخيرة ويأخذ شكلا متخصصا في كل حقل مـــن الحقول الاقتصادية المختلفة ويبحث به في عمق وشمول •

٦ ـ المقالة السياسية :

لقد اهتم الكتاب في المملكة العربية السعوديـة بالقضايا العربية والاسلامية وتحدثوا عنها بلغة رصينة بعيدة عن الغوغائية والصياح والرعونة •• واهـم الذين كتبوا رجال الدين او من اعضاء الحكومة ، ولا غرابة في ذلك لان الحرية في المملكة العربية السعودية ليست بالحرية الفوضوية اللامسؤولة ، ولا بالحريـة المرهقة بالاغلال والقيود ، بل هي حرية هادفة تسعى الى خير الجميع خاضعة لاوامر الدين ونواهيه ••

واننا لننتظر الكثير الكثير من الاخوة الادبـــاء السعوديين ، آملين ان يبقى الباب ما بيننا مفتوحا على مصراعيه لنتفاعل معا ونؤثر ونتأثر ، جاهدين في خلـق سمات ادبية متماثلة تبعث منها نفحة العروبة وتعطرهـا روح الشريعة السمحة ، ومعقد الرجاء باذنه تعالى ••

(الثقافـــة)

معالم خالدة في مسيرة المسرح العربي

محمد تيمور

محمد مبارك

لم يعرف العرب فن التمثيل « المسرح » الا عن طريق احتكاكهم بالغرب . وذلك في أوائل عصر النهضة في القرن التاسع عشر ، واوائل القرن العشرين .

ولعلنا حين نذكر « المسرح » يخطر ببال القارىء الاسلوب الكوميدي « المضحك » الذي ساد فترة من الزمن ، ولعله هو المرغوب عند الكثيرين من جمهور هذا الفن ، الا اننا حين نذكر « المسرح » فاننا نقصد ، الفن المسرحي ككل ، فقد غدا هذا الفن عنصرا أساسيا في عملية البناء الحضاري ، والوعي الجماهيري ، ولم يعد يقتصر دوره على « الترفيه » وحسب وانما تعدى ذلك الى « الجدية » في طرح مشكلات الواقع من كل الجوانب وحتى « المأساة » وهذا ما جعله الفن الرفيع والهام .

ولعل مسرحنا العربي يدين لقلائل كانوا روادا في فن « المسرح » كمؤلفين له ، ومخرجي ، وممثلين على الخشبة . هؤلاء النخبة المثقفة من أجيالنا الاولى حملوا مهمة الايصال والتوعية وصنع الارضية الثقافية الصلبة التي نمشي عليها الآن .

ومحمد تيمور واحد من العباقرة العرب المسرحيين ، الذين ألفوا وأخرجوا ومثلوا الكثير من الاعمال الخالدة التي ادخلتهم تاريخ الفن والادب .

ومحمد تيمور هذا لم يكن مسرحيا فقط ، بل اديبا ، شاعرا ، وقصيصا بارعا، وهذه العجالة البسيطة لا توفيه حقه ، ولا تغني عن الرجوع الى أمهات الكتب والمصادر ، والى مؤلفاته للنهل والاستزادة منها . فمن هو محمد تيمور ؟ . هذا ما ستجيب عليه مقالتنا هذه.

« في الرابع والعشرين من شهر شباط سنة ١٩٢١ قضى الشاب النابه الاديب أمير المسرح « محمد تيمور » ولما يبلغ الثلاثين بعد .. » .

بهذه الكلمات يبدأ محمود تيمور كتابته عن أخيـ
الراحل (محمد) فيقدم للمكتبة العربية أجزاء ثلاثـ
هـي :

– وميض الروح .

– حياتنا التمثيلية .

– المسرح المصري . (اعتمدنا معظمها في هـذ
الدراسة) .

واحياء لذكرى الاديب الراحل ، وبمناسبة مرو
سبعة وخمسين عاما على وفاته ، نتقدم الى القرا
الاعزاء بهذه الدراسة عن حياته ، وآثاره في (الشعر
والنثر ، والخاطرة ، والرواية ، والمسرح) .

ساعين قدر الامكان اظهار نبوغ هذا الاديب العربي مذكرين بفضله وريادته للثقافة والادب في أوائل القرن العشرين وعصر النهضة .

حياته :

ولد محمد تيمور سنة (١٨٩٢) في درب السعادة، وهو الحي الذي يقع بين الموسكي وباب الخلق في مدينة القاهرة ، في عائلة جمعت المكانة والثراء والادب والعلم .

أبوه « أحمد تيمور » العالم والاديب الجليل ، وعمته « عائشة التيمورية » الشاعرة والاديبة ، والتي يهدي « محمد » ديوانه الى روحها .

(لروح عائشة تيمور ارفع هذه النفثات . ابن اخيها محمد تيمور) وأخوه « محمود تيمور » الكاتب الاديب وشيخ القصة العربية القصيرة بلا منازع .

في هذه البيئة وعى محمد تيمور حياته الاولى ناهلا من عطف ابويه ، ورعاية عمته ، مستزيدا ثقافة وتحصيلا مما يصل الى يديه من مكتبة والده الزاخرة .

يقول محمود تيمور عن هذه الفترة :

(.. كلانا كان تواقا ، الى الادب والفن ، اقبلنا على الكتب نطالعها في تشوق يبلغ حد النهم ، وأنشأنا صحيفة خاصة ننشر فيها ما نهوى ، كان توزيعها مقصورا على هل البيت أول الامر ، ثم اصابت حظا من الرواج والانتشار بين الاهل ، والجيران في الحي الذي نسكنه ، ومضينا نؤسس الاجواق المنزلية وغير المنزلية ننفس بها عن تطلعاتنا الى ممارسة فن التمثيل) ..

من هنا نرى أن الصحوة الادبية المبكرة للراحل « محمد » . فما ان اشتد عوده ، وهزته ريح الصبا ، حتى نراه يكتب النثر وينشره في صحيفة « المؤيد » ، وينظم الشعر وينشده في المجالس وله منظومات كان يلقيها في مباريات كرة القدم احتفاء بالفرق المدعوة واشادة بلاعبيها البارزين ، فقد كان و « محمود » من عشاق هذه الرياضة :

(.. وكنا مع ذلك الرباط الادبي الفني على هوى واحد في الرياضة ، رياضة كرة القدم ..) .

حصل « محمد » على الثانوية وشد عزمه للسفر (دون العشرين) الى اوربا « لندن » ليدرس الطب ، ولكنه يتحول من « لندن » الى « فرنسا » زاهدا في الطب وعلومه ، طامعا في دراسة الحقوق حتى يؤمن لنفسه مركزا ووظيفة حكومية يعيش من ورائها ، وفي مقالة له بعنوان « الخوف من الحياة » كتبها في ليون تاريخ ٧ تشرين الثاني ١٩١٣ يقول :

(قصرنا همتنا على تعلم القضاء والطب والهندسة لاعتقادنا بأن الحكومة تفتح ابوابها اذا اتيناها حاملين شهادات هذه العلوم ، ونسينا ان بلادنا التي تتألم من تعاستها والتي ترزح تحت أحمال الشقاء تستغيث صارخة ، ولكنا نضع اصابعنا في آذاننا كي لا نسمع انينها وذلك لانا اصبحنا نخاف الحياة) .

بهذا الاعتراف الذاتي ينتقد « محمد تيمور » نفسه ، موجها بذلك الجيل الشاب ، بهذه الواقعية وهذه النظرية الموضوعية المتكاملة واجه المجتمع وحاول اظهار عيوبه ، واضعا نصب عينيه الحل ، وهو الانتماء لهذا الوطن ، والسعي في سبيل استقلاله ، وحريته ، اعلاء شأنه .

مكث ثلاث سنوات في فرنسا ، وحن للمجيء الى وطنه ليقضي عطلة الدراسة ، وفي هذه الاثناء اندلعت نيران الحرب الكونية الاولى ، فحالت بينه وبين متابعة تحصيله في اوربا ..

في مصر ، حط محمد تيمور رحال سفره ، عاد من اوربا ليبشر بمبادىء ويهتف لدعوات من اهمها ، التحرر ، والانطلاق ، والعلم ، والديمقراطية الحقة ، والى الادب المصور والفاعل في المجتمع ، فتجلت نفسه في طريقين :

١ ــ التجديد في نزعة تكاد تكون ثورية .

٢ ــ الريادة لفئة من الشباب المثقف المستنير .

هذا اضافة لنشره الدعوة الى الثورة الوطنية (الاولى)في طول البلاد وعرضها ، ويكفي انه كان عبقريا والمعيا في خلقه وابداعه ، امتزجت فيه الموهبة مع الخبرة المكتسبة مما جعله رائدا لمدرسة في الفن والادب، مدرسة ضاربة جذورها في الاصالة ، محافظة على

ونوح محزون شكا همه
يثير شكواه حفيف الشجر

يزيدها البلبل من لحنه
ما شاءه البلبل وقت السحر

أسراره نجهل مكنونها
يهتكها البدر اذا ما سفر

وله عدة مقطوعات عرض فيها لظواهر اجتماعية مؤسية كانت تسود مجتمعه ، فهو حين يصف شابا يحتضر ، لا يصفه معزولا عن همومه ولا عن أسباب مأساته ، بل انه يضع اصبعه على الجراح في أكثر من قصيدة :

فوق سرير الموت نام الذي
زال ابتسام العيش عن ثغره

قد ودع الآمال لا يرتجي
منها سوى الراحة في قبره

يطلب خلا صادقا واعيا
يهدي له ما شاء من سره

وفي قصيدة يصف بها اللقيط نراه يحمل هموم المجتمع بسلبياته ويسعى جاهدا لتغييره :

فوق الثرى أبصرته نائما
يئن من جوع وبرد شديد

عليه ثوب أبيض لم أجد
في طيه أسرار ذاك الوليد

قدحرمته الام تحنانها
والصدر والثدي ولثم الخدود

ينساه في البؤس أب ظالم
في دهره يحظى بعيش سعيد

وهو حين يرى الهموم التي يحسها كشاعر ، ينفثها عن صدره في قصيدة ، معبرا عن مهمة الشاعر الشاقة في قصيدة من نفس الشاعر :

من ذا الذي عشق الخيا
ل وهام في حب الورى

نصب الزمان له الشرا
ك فما اشتكى وبها ازدرى

يتوسد الصخر الاصـ
ـم مفكرا متذكرا

من ذا الذي قد هاله
دمع الفقير اذا جرى

من ذا الذي يبكي الأما
نة والوفا بين الورى

هذا الذي ليست له
نفس تباع وتشترى

بهذه الانفة العالية ، وهذه الواقعية الهادفة والتي لا تخلو قصيدة من قصائده منها ، وبها يعلو « محمد تيمور » الشاعر ليتسنم السدة العليا والرفيعة الى جانب شعراء العربية القلائل الذين أحسوا بهموم الناس ، وسعوا الى تحريرهم من مآسيهم وفقرهم ، انهم الشعراء الذين يحملون همة عالية ، ونفوسا لا تباع ولا تشرى ..

يقسم نثره الى قطع وجدانية وخواطر ، وقطع اجتماعية أدبية ، وقسم آخر هو الروايات والمسرحيات ومذكرات كتبها في باريس ، فالقطع النثرية الوجدانية تحمل عواطفه باسلوب خيالي راق ، خال من التصنع ، وهي تشبه بعض شعره ، فهي مظهر من مظاهر روحه كتب عدة قطع منها « الشاعر والليل » و « حديث زهرة » و « حب البقاء » .

وقطعه الاجتماعية تطرق فيها لمواضيع واقعية متفرقة ضمنها بعض آرائه الادبية والاجتماعية والانتقادية تمتاز بنظرة اصلاحية كمقالة عن « الافكار الحديثة والقديمة » وفيها يقف الى جانب التجديد في الشعر . وله مقالة عن « شوقي وجبران » ، يقف فيها موقفا نقديا بعيدا عن التطرف والتكلف والتعقيد ، وما مذهبه الا الابتعاد عن طريقة الاقدمين وانتهاج مذهب الابتداع الذي تظهر فيه شخصية الشاعر مستقلة حرة غير مقيدة .

أما قطعه القصصية الصغير فأهمها « ما تراه العيون » وقد كتبها عن واقع الحياة الاجتماعية في مصر وانتهج بها واقعية التناول بعيدا عن الغلو والخيال نرسم مشاهد حقيقية حية ، ولعل اهمها « في القطار » وهي قطعة غنية بايحائياتها واهدافها الاجتماعية التثويرية التي تبغي التغيير لاتزييف وتمييع الواقع .

اما رواياته المسرحية ، فقد كانت صورة حقيقية من الحياة كاملة ناطقة ، اهمها قصة « الشباب الضائع » وهو لم يتمها لظروف مر بها ، والشباب الضائع باوصافها ومشاهدها واحاديثها واشخاصها صورة جلية واضحة يعلم منها القارىء انبثاق عبقرية تيمور واشراقها .

« العصفور في القفص » رواية من النوع الضاحك (كوميدي) من اربعة فصول ، وهي نسخة من تاريخ

التراث . تحاول شق أفق جديد متطور في الفن مع اشاعة مفاهيم عصرية تقدمية للمجتمع واوضاعه .

هذه هي حياة « محمد تيمور » الغنية والفاعلة من خلال القلم والفكرة والنضال في سبيل حياة افضل ولنقرأ كلمات الاستاذ « مصطفى عبد الرزاق » التي القاها في حفل تأبين « محمد تيمور » عقب وفاته ، ففيها الشيء الكثير عن نضال هذا الاديب الشاعر المسرحي في سبيل الحق والحرية والمساواة :

(نريد ان نسجل في تاريخ نهضتنا صحيفة لشاب ديمقراطي حر نبيل جدير بشباب العروبة ، ومصر الناهض الى الحرية والديمقرطية ان يتخذه مثلا ..

لقد استقال من خدمة القصر ليخدم الشعب ، شعورا منه بأن الشعب اولى ان يخدم .

لقد خرج من دار الملك ليشتغل في دار التمثيل، مؤلف روايات وممثلا في معظم الاحيان ، ذلك لانه شعر بحاجة الامة الى تربية ذوقها وتهذيب عواطفها ، ورأى التمثيل أحسن مدرسة للعواطف والاذواق وهو في بلدنا مزدرى ، فلم يبال بلوم اللائمين وسخرية الهازئين، فنفع التمثيل بمواهبه ، كما كرمه باتصاله به، وخلد له في تاريخ الفن أبرا أن لم يعرف حقه المعاصرون ، فستشدوا بذكره الاجيال » .

هذه هي رسالته الادبية الاجتماعية التي عكست صور واقعه ، وتلك حياة زاخرة ، نازعة للحرية المطلقة، الحرية المبدعة ، مع ايمان بفكرة التطور ، وروح التجديد .

آثاره ومؤلفاته :

أ ــ في الشعر :

من الطبيعي ان تكون هذه النفس الثائرة مفرطة الحساسية ، ومن الطبيعي ان تخلق منه شاعرا . فشاعريته استمدها من بيئته وثقافته ، واكتسب بعضها من الادب الغربي والعالمي . فقد كتب الفقيد نحو ستين قطعة شعرية لا تتجاوز موضوعاتها ماتكلفه الشعراء الاقدمين فكتب في البداية قصائد المدح والرثاء والفخر ، لكن بعد مجيئه من اوربا استطاع ان يستوحي التجديد ويستشف التغيير في البنية الشعرية السائدة والمتوارثة ، فكان هذا اللطف في تناول الموضوعات التي يشعر بها ، فكان شعره سهل العبارة يفيض رقة وسحرا ، وهو على قسمين :

ــ شعر غزلي .

ــ شعر وجداني وصفي لحالات انسانية .

الشعر الغزلي عبر عن معاناة حقيقية وتجربة مؤلمة وحزينة عاشها الشاعر واقعا فخرج من التجربة مكلوم الفؤاد .

أما شعره الوجداني فهو صدى للنغمة الحزينة التي تواترت شحناتها من قلبه . فكانت قصائد « ياموت » و « عرش الحداد » و « الشاعر الغضبان » و « القلب » وفيها يتوحد . الشاعر مع همه وينفث من وجدانه مناجيا آلامه الخفية التي تؤرق ليله وتقض مضجعه ، وهو يراها معكوسة في عيون البؤساء .

ديوانه كما قلت يضم جل قصائده التي يهديها لعمته « عائشة » ويقدم ديوانه للقارىء بهذه الكلمات :

(ما هذه الا نفثات ضاق بها صدري فنطقت بها شعرا ، فان تصل الى اعماق قلبك أيها القارىء الكريم وانت تتلوها لنفسك اكون قد بلغت الغاية التي من اجلها طبعت هذا الكتاب) .

ومن قصائده الغزلية نقتطف هذه الابيات من قصيدة بعنوان « يلومني قومي » .

يلومني قومي على حبها
واللوم لا يجدي ولا ينفع

يرمونني بالضعف لكنهم
لم يجرعوا الكأس التي أجرع

أعلل النفس بنيل المنا
والصب بالآمال لا يقنع

اني فتى لم يدر طعم الكرى
ان يهجع الموتور لا يهجع

وان شدا البلبل في دوحه
يذوب وجدا قلبه الموجع

ومن قصائده الوجدانية نختار هذه الابيات من قصيدة يناجي بها الليل :

قد اودعته الناس اسرارها
كأنه للسر نعم المقر

الحانه تقبيل اهل الهوى
وهمس من يحلو لديه السهر

عائلة مصرية ، حلل فيها المؤلف نفوس اشخاصه تحليلا عجيبا يظهر مدى اطلاعه على مدارس علم النفس الغربية ، واظهر لكل منهم شخصيته البارزة المهمة ، منتقدا بعض النقائص الاخلاقية الشرقية التي تؤدي غالبا الى كوارث عائلية ربما انتهت بفاجعات مؤلمة ، وكتب اضافة لذلك عددا كبيرا من الروايات وكانت غايته منها ان تمثل على خشبة المسرح .

«عبد الستار افندي» رواية من فصول اربعة ومن النوع (الكوميدي) الاخلاقي الهادف ، حيث راجت المسارح الهزلية وكثر الاقبال عليها ، اما رواية «الهاوية» فهي خير رواية كتبها محمد تيمور ، ولاحد اصدقائه قول جاء فيه :

(لو مات تيمور ولم يكتب الهاوية لقلنا انه مات ولم يفعل شيئا ، أما وقد الف الهاوية فقد خلد اسمه في تاريخ التمثيل) وهي رواية (كوميدية درامية) من ثلاث فصول ، صرح المؤلف بمضمونها على لسان احد اشخاصه :

« ما دام الراجل مشغول بالنسوان والخمرة والسهر والكوكايين طبعا الست رايحة تشتغل اولا بالشربات والمناديل ... وبعدين تشتغل بحاجيات تانية ... »

هنا نرى محمد تيمور يضع اصبعه على اساس المشاكل الاجتماعية ، انه الرجل ، فبقدرمايكون التزامه الاخلاقي نابعءن صدق ووفاء ووعي بقدر ما تتلافى الاسر مشاكلها والامة منزلقاتها وتخطو نحو التقدم وصنع الحضارة والعلم .

معظم كتابات محمد تيمور تتجه ناحية الحركة المسرحية ، والتمثيل خاصة بعد مجيئه من فرنسا ، وبقاءه في مصر فقد حاول ان يصنع شيئا جديدا للمسرح ، بل حاول ان يغير من فساد ظاهر في تعامل المسرحيين مع الجمهور ، من هنا كتب مجموعة مقالات عن تاريخ التمثيل في فرنسا ومصر ، اضافة لمجموعة اخرى نشرت في (السفور) عام ١٩٢٠ ، حاول فيها ان يحاكم مؤلفي الروايات والتمثيليات ومنهم (فرح انطون ، ابراهيم رمزي ، لطفي جمعة ،خليل مطران) وله مقالات متتابعة ظهرت بجريدة (المنبر) سنة ١٩١٨ نقد فيها كلا من الممثلين (نجيب الريحاني،الشيخ سلامة حجازي ، جورج ابيض ، عبد الرحمن رشدي،عزيز عيد،وروزا اليوسف ، منيرة المهدية ، وميليا ديان ،وآل عكاشة ، وعبد العزيز خليل ،وعمر وصفي ، واحمد فهيم) ...

وهؤلاء كانوا من رواد المسرح في مصر، وقد اثارت مقالاته زوبعة في الساحة الادبية والفنية في ذلك الوقت مما دعى اكثر هؤلاء الى الرد على مقالاته،وكانت الساحة الثقافية تشهد صولاته وجولاته وانتقاداته ، اضافة لمقالاته النقدية على مؤلفي روايات التمثيل ورواد الحركة المسرحية آنذاك كانت له مقالات في نقد الممثلين كذلك ، وله قطع شعرية عبارة عن قصائد تمثيلية «مونولوجات» أما اعماله الروائية المسرحية فقد ساهم ب (الهاوية) وهي كوميديا درامية من ثلاث فصول مثلها عدد من مشاهير ممثلي المسرح (احمد فهيم ، بشارة واكيم ، القفص) وهي كوميديا ذات اربعة فصول مثلتها فرقة روزا اليوسف ....) ولقد كتب رواية (العصفور في الاستاذ عبد الرحمن رشدي لاول مرة بمسرح (برنتانيا) سنة ١٩١٨ ، وله ايضا رواية ، _ عبد الستار افندي_ وهي كوميديا اخلاقية من اربعة فصول مثلها لاول مرة _ بمسرحها تحت اشراف الاستاذ عزيز عيد ١٩٢٠ . منيرة المهدية سنة ١٩١٨ ، وشارك في تمثيلها الممثلين المسرحيين آنذاك .

اما رواية _ العشرة الطيبة _ الزائعة الصيت فهي اوبرا غنائية من اربعة فصول وثلاثة مناظر شارك في كتابتها زجلا _ بديع خيري _ المؤلف والممثل المسرحي الشهير ، والتي لحن موسيقاها موسيقار الشعب(سيد درويش) ومثلتها لاول مرة فرقة _ الكازينو دي باريس _ بمسرحها تحت اشراف الاستاذ عزيز عيد ١٩٢٠ .

هذا مجمل مبسط الحياة زاخرة بالعطاء والادب والفن ، حياة عاشها قبل اكثر من نصف قرن ، شاعر وفنان ملهم هو _ محمد تيمور _ الذي تصادق كتابتنا عنه ، مرور ذكرى وفاته ، فلا اقل من ان تحفظ له الاجيال العربية هذه النفس الطيبة المعطاءة في اكثر من مجال وفي اكثر من موضوع ...

فالى روحه الطاهرة نرفع كل محبتنا واحترامنا ، لان الامة لاتفتخر الا بروادها وعظمائها ، فهم ، المشعل على طريق الفكر والادب والحضارة .

_ دمشق _ محمد مباركة

إلى المعلم في عيده

علي حمدان الرياحي

خير البرية عالم ومعلم ومسامع تصغي اليه وتفهم
واذا نكرم للمعلم عيده فالأرض تمرح والربيع يكرم
والزهر يعبق بالطيوب مهللا من برعم يزهو وآخر يبسم
والجدول الرقراق يبعث ماءه بين الحقول مصفقا يتنعم
فاذا الطبيعة شاركت في عيده أحرى بأن يهب القريض الملهم

......

عيد يشع الكون من لألائه فيزول ديجور ويفصح مبهم

......

آذار يا شهر السعادة والندى نعماك أنك في البرية معلم
ما الباقيات من الشهور سوى شذى من طيب نفحك يستشم ويلثم
فكأن عيد البعث والأم الذي يتلو المعلم والمعلم توأم
كم تزدهي لما يقال ثلاثة تغزو بطلعتك السحاب وتتحم

......

يا أيها البطل المعلم سر بنا لأخوة من بينة تتجهم
وامح السخافة من أساطير الالى لم يرحموا جيلا ولم يتفهموا
انا لتواقون للعلم الذي يمحو أساطير الشقاق ويهدم
انا لنألف من يعلم جيلنا حبا ولو أن المعلم برهم
لا عمة نهوى ولا قلنوسة ان كان في طياتها ما يخصم
ما دام ينعق بالضغينة ناعق هذا مسيحي وهذا مسلم
ما دام في الدين الحنيف فراسخ ومعالم ومذاهب تتقسم
ما دام يؤمن جاهل بخلافها وتليه أجيال بها تتضرم

......

يا أيها الامل المعلم حسبنا مزق وشتى أنفس تتحطم
فامح دجى التاريخ وانهض للعلا ما دام موفورا لديك السلم
وابعث بقومي أمة عربية لم يثنها عن عزمها من يزحم
فالشيخ حسب الشيخ في محرابه والقس ضمن كنيسة يترنم
لا نبتغي منهم عظاة محافل ان لم يكن فيها حجى وتقدم
ما الدين الا للمحبة والندى فليعلم المتزمتون ويفهموا
لا نرتضي دينا يمزق شملنا ويفت وحدة صفنا ويقسم

. . . . . .

ما كان أحمد سيد الدنيا سوى من كان يجمع قومه ويعلم
ما كان يقبل بينة في قومه ما كان يرحم من يغش ويضرم
لو كان ذلك ما أشاد خلافة سمع الاصم بها وفاه الابكم
وعنت لها روم وفرس وانضوى للوائها عربيها والاعجم
واستأثرت سعة الوجود مكانة لا ضغن يلمس حبلها ويصرم
انا لنرجو أن نعلم نهجه منبر من قحموا التراث وأقحموا

. . . . . .

يا من يفيض ونستفيض بعيده صورا من الماضي تضيء وتفحم
يا أيها الاستاذ قل باسم الورى باسم العروبة باسم من يتعلم
لا نرتضي نهما بنا وتضورا ليموت محروم ويحيا متخم
لا نرتضي زيتا يقدم للعدى سعة ويعوزنا عليه الدرهم
لا نرتضي أرض العروبة موطنا سمحا يعيث على رباه المجرم

. . . . . .

انا لنطلب منك جيلا شامخا عبل السواعد أصيدا لا يهزم
فالجيل في عنق المعلم ذمة وأمانة تزهو به أو تظلم
فانهض بعلمك يا معلم لا تهن للترهات ولا لمن فيها عموا
واهنأ بعيدك ما بقيت معلما ما نبتغيه ودفق فيضك يكرم

علي حمدان الرياحي

دمشق الفيحاء

في المصادر القديمة والحديثة

حسان الكاتب

نشأت دمشق في منطقة مختارة أرضها خصبة ومياهها عذبة واقليمها معتدل . تهبط اليها مياه بردى الغزيرة من المرتفعات المجاورة في الغرب فتتوزع في أنحائها على شكل المروحة مؤلفة سبعة أنهر هي « بردى » في الوسط و« وتورا ويزيد » في الشمال و «بانياس والديراني والمزاوي » في الجنوب فتسقي المدينة وضواحيها وتخلق من المنطقة المحيطة بها روضة غناء اشتهرت باسم الغوطة وهي تتلألأ كزمردة خضراء تتوسط بحر من رمال الصحراء الممتدة نحو الشرق والشمال الشرقي الى حدود الفرات ونحو الجنوب الى بحر العرب باستثناء واحات صغيرة .

وأما من الغرب فيفصلها عن البحر « مائة كيلومتر » من جبال لبنان الشرقية والغربية وترتفع عن سطح البحر ـ ٧٠٠ ـ متر وتقع في المنطقة المعتدلة على خط عرض شمالي / ٣٦ / درجة وخط طول شرقي / ٣٣ / درجة والطقس فيها محتمل في فصلي الصيف والشتاء جميل في فصلي الربيع والخريف أمطارها تقدر بـ ٣٠٠ ميللي متر وسطيا مع ذلك فهي تسقط في بعض أيام الخريف والربيع وهي لاتدوم طويلا بل تشرق الشمس في أكثر أيام موسم الامطار .

درجات الحرارة العظمى تتراوح بين (٣٠ و ٤٠) درجة في الظل والصغرى لاتهبط تحت درجة الصفر الا أن هذه المميزات الطبيعية والموقع الجغرافي الذي جعل للمدينة اهمية تاريخية في كل العصور وجعلها تلعب دورا بارزا في أحداث الشرق فهي محطة طريق المواصلات بين الشرق والبحر الابيض المتوسط من ناحية وبين الاناضول ومفترق من ناحية ثانية فلا بد للقوافل التجارية من المرور بها في اتجاهاتها المختلفة ولا بد للجيوش الغازية من الحلول بها في حركاتها وتوسعها الامر الذي جعلها هدفا للفاتحين ومرتعا تتقلب فيه وتتفاعل حضارات ومدنيات الشرق والغرب .

فهي تعد من أهم مدن التاريخ القديم والحديث، وفيما يلي نستعرض أهم الاحداث والادوار التاريخية التي مرت عليها والتي كان لها في نشوئها وتطويرها ، في ازدهارها وتأخرها .

يبدو تاريخ دمشق غامضا قبل الالف الاول قبل الميلاد لانعرف عنه سوى أن الوثائق المصرية في القرن الخامس عشر تذكر دمشق بين المدن السورية التي تحتلها جيوش الفراعنة ومع بداية الالف الاول قبل الميلاد تظهر دمشق على مسرح الاحداث في منطقة الشرق القديم كعاصمة للارامیين وتاخذ أهميتها تزداد شيئا فشيئا الى أن تغدو زعيمة حلف الدويلات الارامية الممتدة من الشمال الى الجنوب من سورية في حروبها مع الدولة الاشورية المسيطرة في بابل وبلاد الرافدين والجزيرة والتي تتقدم خلال القرنين الثامن والتاسع لابتلاع هذه الدويلات .

وتظل دمشق أربعة قرون خاضعة لسيادة الامبراطوريات الشرقية الكبيرة فتنتقل في القرن السابع الى أيدي البابليين ثم تخضع للفرس في القرن السادس .

في عام ـ ٣٣٣ ـ قبل الميلاد يحتلها اسكندر المكدوني فيربط مصيرها منذ ذلك الحين ولفترة عشرة قرون بالغرب الممثل بالسلوقيين خلفاء الاسكندر ، ثم بالرومان ثم بالبزنطيين ٠

ففي عام ـ ٦٤ ـ قبل الميلاد دخلت جيوش القائد الروماني ـ بومبه ـ الى دمشق وانهت السيادة اليونانية في سورية ٠

وتستفيد دمشق من السلام والاستقرار الذي هياه لها انضواؤها ضمن امبراطورية روما القوية وتنال شيئا من التطور والازدهار وتنشط حركة التجارة العالمية فيها وتصبح مدينة ذات شأن وتعطى لقب ـ ميتروبول ـ وعند ظهور المسيحية تسهم دمشق في أحداث هذا الدين الجديد وما صاحبه من تضحيات ويبرز فيها اسماء قديسين وشهداء امثال ـ بولس ـ وحنانيا ـ و ـ النبي يحيل ـ ٠

ثم تنقسم الامبرطورية الرومانية المسيحية الى دولتين شرقية وغربية في أواخر القرن الرابع وتصبح دمشق مع سورية تابعة للقسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ٠ وترث هذه الدولة النزاع مع الفرس وتكل أمر الدفاع للغساسنه العرب النازلين في دمشق وما حولها وتصبح دمشق مركزا عسكريا هاما وتسقط في أيدي الساسائيين عام ٦١٢ ـ م في / ٦٢٧ / ميلادية وبعد سنوات قلائل يقع الحدث الهام في تاريخ دمشق ألا وهو الفتح العربي الاسلامي وينتهي في عام / ١٤ / للهجرة و / ٦٣٥ ـ ميلادية النفوذ الغربي وتصبح دمشق جزءا من الدولة العربية الاسلامية الجديد ٠

وفي عام (٤١) هـ (٦٦١) م تصبح عاصمة للامويين في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان وتعيش دمشق قرنا مليئا بالمجد والسؤدد وتصل حدود الدولة في عهد الامويين الى الصين شرقا والى جنوب فرنسا غربا ٠

ثم ينتهي هذا العصر الذهبي في عام / ١٣٢ هـ (٧٥٠ م أثر ثورة عارمة قضت على الامويين ونقلت الحكم الى الاسرة العباسية ، وتصبح دمشق مدينة ثانوية تابعة لبغداد العاصمه الجديدة ٠ ويخيم الظلام والفوضى على المدينة وتسود فيها الفتن والاضطرابات عدة قرون فيطمع في حكمها ملوك الطواف والاقطاعيون ٠

وفي عام / ٣٥٦ / هـ (٩٧٣) م يبدأ العهد الفاطمي وتصبح دمشق تابعة للقاهرة حتى عام (٤٦٨) هـ / ١٠٧٥ م ففي ذلك العام يمتد النفوذ السلجوقي المسيطر على بغداد الى سورية فتصبح أمارة سلجوقية يتولاها « تتش » ابن السلطان « ألب أرسلان » ٠

وبذلك تحولت دمشق من تبعيتها الخليفة القاهرة الشيعي الى خليفة بغداد السني ، وتخلصت كذلك من الحكم الفاطمي

وبعد ـ تتش ـ حكم ابنه ـ رضوان ـ ثم ابنه ـ دقاق ـ ثم ال الامر الى الملك ظهير الدين قفتلكين اتابك تتش وصيا ثم تفرد بالحكم عام ٤٩٧ هـ ـ ١١٠٣ م مؤسسا اسرة الاتابكة نسبة الى لقبه الذي كان يعني عند السلاجقة تابعا او وصيا على صغار الامراء وصاحب هذا اللقب من امراء الجيش ٠

وفي عهد الاسرة بدأت الحروب الصليبية وكانت القدس قد سقطت في ايدي الصليبيين قبل خمسة اعوام من تولي الاتابك ظهير الدين واخذ خطرهم يتقدم نحو دمشق ، واصبح الاتابك في دمشق اعجز من ان يقفوا وحدهم في وجههم ، واخذ الناس يحسون بضرورة الاتحاد ويبحثون عن زعيم قوي ينقذهم من الخطر وكان نور الدين زنكي ملك حلب يحارب الصليبيين في الشمال بشجاعة واخلاص وذاعت شهرته في كل مكان وكان قدم مرارا لنجدة دمشق وخاصة عندما حاصرها ـ كونراد الثالث ـ ملك الالمان عام ٥٤٥ هـ ١١٤٢ م ولما ساءت سيرة اتابكة دمشق دعي نور الدين لضمها الى مملكته ، فدخلها عام ٥٤٩ هـ ـ ١١٥٤ م واتخذها عاصمة للدولة الموحدة التي شملت المقاطعات السورية اولا ثم مصر ٠

وخلف نور الدين عام ٥٦٩ هـ ـ ١١٧٣ م ابنه الصغير فأحاطت به بطانة أفسدت الامور ، وكان صلاح الدين يحكم مصر باسم نور الدين ، ثم ابنه ، فدعى من قبل الامراء وذوي الرأي في دمشق لتولي السلطة فيها ٠

وهكذا قامت الدولة الايوبية في مصر والشام بعد عام من وفاة نور الدين ودامت الى ان قضت عليها غزوة المغول في عهد هولاكو عام ٦٥٨ ـ ١٢٤٨ م وكانت مصر قد خرجت من ايديهم قبل عشر سنين وقام فيها حكم المماليك وهم رجال الجيش كانوا ارقاء محررين عند الايوبيين فاغتصبوا السلطة منهم ٠ وقبل ان نتحدث عن دولة المماليك يجدر بنا ان نذكر شيئا عن اهمية العهد الذي سبقه ـ عهد نور الدين وصلاح الدين الذي يعد بالنسبة ، لدمشق عهد احياء ونهضة

اسسها في شتى الميادين الحربية والعمرانية والاقتصادية والثقافية والروحية ٠

عادت خلاله دمشق الى مسرح الاحداث في الشرق العربي وغدت من جديد في عهد هذين السلطانين عاصمة دولة كبيرة واستعادت بعض مكانتها التي فقدتها منذ انتهاء العهد الاموي ٠

ومنذ عام ٦٥٨ هـ تمتد سيادة المماليك الى الشام لانقاذها من المغول وتوحيدها مع مصر واعادة بناء الدولة العربية ٠ وحظيت دمشق رغم تبعيتها للقاهرة بمكان مرموق في العهد المملوكي وكانت بمثابة العاصمة الثانية للدولة ومركز اكبر ولاياتها كما استمرت حركة النهضة في النماء وظهرت اثارها في مختلف الميادين ، فتقدمت العلوم والفنون والصناعات وازدهرت المشاريع العمرانية ونشطت التجارة ولكن هذا الازدهار كان يصاب بنكسات من حين لاخر او بكوارث مصدرها غزو مغولي أو فتنة داخلية او عصيان ٠

وكانت اعظم هذه الكوارث بل افدح مصيبة حلت بدمشق في تاريخها كله هي تدميرها على يد تيمورلنك عام ١٤٠٠ م ٠

وتم الفتح العثماني لدمشق على ٩٢٢ هـ ــ ١٥١٦ م وغدت مركز ولاية تابعة للقسطنطينية يتولاها وال عثماني يطلق عليه لقب ــ باشا ــ وتقيم فيها جامعات عسكرية مسؤولة عن امن المنطقة كما اصبحت لها مكانة مرموقة لوقوعها في طريق الحجاز بحيث غدت المحطة الرئيسية لهذا الطريق فيها تتجمع قوافل الحج من كل انحاء العالم الاسلامي ثم تخرج في ركب كبير بقيادة واليها وحمايته ، يتقدمه المحمل الشريف ٠ وقد افادت دمشق من هذا الموسم فوائد اقتصادية هامة ٠

وعاشت دمشق اربعة قرون في ظل السيادة العثمانية عيشة خاملة ، في شبه عزلة عن العالم الخارجي ، وساد الجهل والركود الفكري وكثرت الاضطرابات والفتن ٠

ونراها في القرن التاسع عشر تتخلص لمدة عشر سنوات ١٨٣٠ ــ ١٨٤٠ م من الحكم العثماني حينما دخلتها قوات ابراهيم باشا واقامت فيها حكما مستنيرا تقدميا تابعا للقاهرة ثم انتهى الحكم المصري بسبب وقوف الدول الاوروبية يومئذ في وجه محمد علي وخوفها من اقامة دولة فتية في الشام ومصر تهدد مصالحها ٠

وعادت سورية الى السيادة العثمانية ولكن بوادر اليقظة الفكرية القومية اخذت تظهر منذ النصف الثاني لهذا القرن وبدأ الغليان الثوري في مطلع القرن العشرين يقوى شيئا فشيئا ولكنه لم يكن أكثر من حركة لاصلاح فساد الحكم واظهار حقوق العرب القومية وجاءت الحرب العالمية الاولى فانتهزها العرب فرصة للخلاص من الحكم العثماني واتفق زعماء دمشق مع امراء الحجاز على الثورة ، واتفق الحسين مع الحلفاء ممثلين في ــ مكمهون ــ على التعاون مقابل اقامة وطن عربي مستقل وانتهى الحكم العثماني اخيرا في تشرين الاول عام ١٩١٨ م بدخول طلائع الحلفاء بقيادة فيصل بن الحسين واقيمت في دمشق حكومة عربية توج فيصل ملكا عليها في اذار ١٩١٩ م وفي تموز دخلت القوات الفرنسية دمشق بقيادة الجنرال ــ غورو ــ وفرض الانتداب الفرنسي بالقوة في سورية ٠

ويبدأ كفاح السوريين من جديد من اجل التحرر وقامت في دمشق عدة ثورات أهمها تلك التي حدثت عام ١٩٢٥ م ثم نالت سورية استقلالا مقيدا بمعاهدة عام ١٩٣٦ ودخلت عصبة الامم ٠ ولكن البلاد لم تحصل على سيادتها الكاملة الا في نيسان ١٩٤٦ م حين جلت القوات الفرنسية عن البلاد ٠

ودمشق اليوم عاصمة الجمهورية العربية السورية ، مدينة جميلة هادئة لايزيد عدد سكانها عن ١٠٤٢٠٠٠ نسمة ولكنها حافلة بكل مظاهر التقدم والرقي عامرة بالمؤسسات العلمية والفنية والصناعية كالجامعة المشتملة على الفروع والمعاهد العديدة والمسجد الاموي ومجمع اللغة العربية والمتحف الوطني الذي يعد بثروته الاثرية وتنظيمه الحديث من اشهر متاحف العالم والمتحف الحربي ومتحف التقاليد الشعبية وصالة الشعب للفنون واتحاد الكتاب العرب ــ ومركز الابحاث التاريخية وجمعية اصدقاء دمشق التابعان للمديرية العامة للاثار ــ ومؤسسة الاذاعة والتلفزيون وفيها دفن كثير من الخلفاء والعلماء والادباء والمفكرين على مر العصور ٠

ويشرف على دمشق من جهة الشمال الغربي جبل ــ قاسيون ــ وقد كانت في قبته ــ قبة النصر ــ شاخصة بجدرانها الثلاثة دون الرابع فدكها الفرنسيون الفيشيون في ايار ١٩٤١ حينما كانوا يدافعون عن مراكزهم حول دمشق ضد الجيش الانكليزي الراهن من فلسطين لئلا يتخذها هدفا ٠ كما كان في تلك الذروة حصن بناه الفرنسيون على غرار الحصون التي بنوها في جانب قبة السيار وقبة بشار وغيرها غربي ــ المزة ــ وقبة النصر المذكورة بناها

في قول ابن طولون – الامير برقوق الصالحي – نائب دمشق عام ٨٧٧ هـ في عهد السلطان قاتيباي احد سلاطين دولة الشراكسة في مصر والشام ٠ وذلك ذكرى انتصار الامير المذكور على الامير سوار الغادري والقائه القبض عليه واعدامه ٠ واعدامه ٠

وذروة قاسيون هضبة منبسطة ارتفاعها ١١٠٥ مترا عن سطح البحر و ٤٥٠ متر عن دمشق ومساحتها حوالي ٢٠٠ر٠٠٠ م مربع وهي ذات مناظر غاية في الجمال والعلو والامتداد نحو دمشق والغوطتين ووادي الاعوج في الجنوب وبحيرة العتيبة وسهل رمدان وديرة التلول في الشرق ووادي بردى في الغرب ووادي منين وحلبون في الشمال ٠

ويصلح جبل قاسيون للاصطياف وذلك باحداث فنادق ومقاهي ودارات – فيلات – تربط بالمدينة بطرق قبسة السيار وقد استطاعت الحكومة اخيرا شق شوارع جميلة على امتداده ويؤمل ان تكون هذه الشوارع فاتحة للوصول الى اعالي الجبل للاستفادة منه في الاصطياف يقع في سطحه – خزان الفيجة – الذي يسقي دمشق من نبع الفيجة على بعد ٢٢ كم من دمشق ٠

وفي دمشق سوق كبيرة تعرف بسوق الحميدية وتعتبر مركزا للاعمال التجارية ومعرضا دائما للصناعات السورية بالاضافة الى معرض دولي دائم يقام فيها لمدة شهر كل عام في فصل الصيف وتعتبر مركزا للاعمال التجارية ، ومعرضا دائما لكل الصناعات السورية ٠ وهناك تجد السلع المختلفة وقد اتخذ التجار حوانيتهم متجاورة وانشأوا اسواقا فرعية ٠ فهناك تجار الحلي الذهبية والفضية وسوقهم تعرف بالصياغة وهناك تجار النحاس الذين يبيعون الاواني النحاسية ويصبغونها ومكانهم يعرف بسوق النحاسين ، وهناك ايضا تجار البخور والعطور ، وقد اتخذوا لهم سوقا تعرف باسم سوق العطارين ٠ وفي هذه السوق يجد الزائر كل المصنوعات السورية كالسجاد والمنسوجات الحريرية والجلدية ٠ يجد الهدايا الجميلة التي اشتهرت بصنعها دمشق ٠ كذلك يجد الزائر الفاكهة المجففة والحلوى المتعددة الانواع ، وتجد أيضا الروائح العطرية والمصنوعات الزجاجية البديعة والتحف الخشبية الدقيقة المطعمة بالاصداف ٠

وقد اشتهرت دمشق منذ خمسة عشر قرنا من الزمان بما تنتجه من الصلب ، ولعل المشتغلين بصناعة الصلب من أبناء دمشق كانوا أول من يتوصل الى صنع الصلب الحقيقي وقد يبلغ من صلابة السيف الدمشقي انه كان يشق عمودا من الحديد ، كما بلغ من حدته انه كان يشطر كوفية من الحرير وهي سابحة في الهواء ٠

وفي رواية من روايات الحروب الصليبية أن ريشارد قلب الاسد كان يتباهى بسيفه ويفاخر به الملك صلاح الدين الايوبي ٠ وكي يبرهن على صلابة سيفه كان يقطع به عودا من حديد ، فناوله صلاح الدين وسادة من الحرير الرفيع الناعم وفي رواية اخرى ناوله شريطا حريريا ودعاه ان يجرب فيها سيفه الذي يتباهى به فلم يستطع ريشارد أن يقطعه به ٠ فضرب صلاح الدين الشريط الحريري بسيفه الدمشقي ضربة واحدة شطرته الى نصفين (١) ٠

دمشق – حسان الكاتب

---

١ – المراجع : تاريخ دمشق لابن عساكر وفتوح الشام لمحمد كرد علي وكتاب – دمشق – للدكتور صفوح خير وكتاب – محافظة دمشق الصادر عن وزارة الداخلية في مطابع ادارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي وكتاب – الريف السوري – محافظة دمشق لاحمد وصفي زكريا وكتاب – دمشق في مطلع القرن العشرين – اصدار وزارة الثقافة بدمشق والموسوعة الذهبية وقصة الفلزات تأليف لسلي ايتشون ترجمة جبرائيل كساب والماسعة الموجزة لحسان الكاتب – حرف الدال – ج ٨ الصادر في دمشق بتاريخ ١–١٢–١٩٧٧ ٠



محمد هشام العظم

يا حمص حييت ما أحلى مغانيك ... وما ألذ الصبا يسري بواديك
وما أحيلى الهوى تسبي مذاهبه ... شتى المحبين اذ عزّت شوافيك
أمثولة الديك ما زالت مخلدة ... يا روح ماتركت أمثولة الديك(١)
سارت فطارت بها الافكار هائمة ... تسعى وتبحث عن فحوى معانيك
جلّت عن المثل الاعلى فراودها ... كهف العوارف فاحتجت معاليك
سبحان باريك كم حالت خوارقه ... دون المحبين يا سبحان باريك
والعبقريات ان لم تعط نادرة ... فريدة خرجت عن كونها فيك
والحب ما لم تثر روعاته دهشا ... ما كان الا كنزوات الصعاليك

• • • • • •

بلابل الدوح ما غنت على فنن ... الا لتذكر شحرورا يناديك(٢)
هوى الى الارض من علياء باسقة ... كما ترامى على الاقدام هاويك
يطوي وينشر فوق البسط أجنحة ... ويسحب الذيل مسحورا بشاديك
وظلّ في سكرة الانغام منتشيا ... عين ترف ، ومنقار يناغيك
بين الندامى وزين الدين يرفده ... وليس كالزين أنغاما يجاريك
يقول : ضيف يشاكينا الهوى طربا ... ما أكرم الطير ألحانا تشاكيك
حتى الثمالة والندمان تحرسه ... كما أحاطك بالاشفاق آسيك
حتى اذا نغم أغفى على وتر ... وأسفر الصبح عن أحلى لياليك
أجال في الصحب طرفا حار من عجب ... وطار في الدوح مفتونا يناجيك
لئن أخاف فقد أعطيته مثلا ... فيه البلابل ما زالت تناديك
يا حمص ان لم تعيدي ما بدأت به ... فلن نردد في الدنيا أغانيك
فرائد الدهر ان أغضيت ساهية ... عنها عيونك نخشى أن تجافيك
فاستضحكت حمص في أبهى تواضعها ... ليست أمانيّ أن أحيي أمانيك(٣)
ما كان لي أن ألبي رغبة سلفت ... وافتك يوما وجلت أن توافيك
ان الفريدة ما تنفك واحدة ... يتيمة فاغربي عن وجه ماليك

• • • • • •

ميماسك الحلو مياس بوارفه ... كما تأوّد في الاعطاف ساقيك(٤)

ميماسك الحلو يزهو في أصائله ... وفي العشيات يستهوي لواهيك

ميماسك الحلو والصفصاف منسدل ... كما تدلت شعور من أعاليك

اذا تدلى على العاصي يعاتبه ... فطالما أترف اللقيا تلاقيك

ميماسك الحلو ما ماجت غدائره ... الا وماست به حبا جواريك

اذا تماوجت الالوان في ورق ... وفي الزهور تجلت في غوانيك

ميماسك الحلو والعاصي يهيم به ... لثما ، كما جال هيمان على فيك

روى بك الزهر ما ان فاح عاطره ... حتى أطلت على الدنيا روابيك

راباك في الحسن مزهوا بسلسله ... وما تخلف الا من يرابيك

لله درك كم أعطيت عاصية ... سوابغ الخير يا بشرى عواصيك

هذي حماة يرويها على حسد ... منها ، ويطفح بالخيرات عاصيك

لما عصاك هوى قالت عواذله ... وراح يذكر للاخرى تعاليك(٥)

تركته فجرى تخزى نكايته ... الى حماة مدلا كي يضاهيك

اذا حماة نواعير تئن له ... لترفع الماء كي تحكي سواقيك

وتنشىء السد بعد السد توقفه ... على المنافع ، لا حبا تباهيك

شتان ما بين أسباب الهوى مثلا ... وبين غاياته ، جلت معانيك

ناهيك بالحب أن يحظى بطارفه ... لا ترزئي الحب من أقوال ناهيك

فالحب أروع ما يهذي الجنون به ... عاش المحبون ، لا عاشت أعاديك

. . . . . .

يا حمص حسبك يا سبحان كافيك ... جاوزت طورك حتى كلّ راقيك

ماض من الفخر لا تعيا شواهده ... كما تثرت الثريا من نواصيك

ثلاثة حكموا روما أباطرة ... من حمص أصلهم ، من ذا يماريك

تشريعهم أحرز القانون سابقة ... والسبق في الشيء أحلى ما يؤاتيك

أما كفاك من الروعات أندرها ... حتى ظفرت بسيف الله حاميك

خصصت نفسك بالمثلى أنانية ... حتى تفردت في حسنى مساويك

ما قلت قولا تلقاه ذوو حسد ... بالنقد ، الا تحلى من تغابيك

وما تجاسر حساد على نعم ... ملكتها خيرة ، لولا تغاضيك

واريتها في سذاجات المنى طرفا ... ان السذاجة أتقى ما يواريك

روح الدعابة ، ان ألقاك في حرج ... غطت ظواهره شتى خوافيك

فكـم رددت علـى الاحـراج قـائلة ... حمصيـة الرجـع ، ما أحـلى تلافيـك
عافـاك مـن سنن الايـام مـا حصنت ... منـك الروائـع فاستحياك عـافيـك
هـذي دواليـك قـد أعطتك نبذتهـا ... وأنت كالكـرم امـدادا دواليـك

• • • • • •

اذا سـردت مزيـدا مـن قـوافيـك ... فمـا وفيت قليـلا مـن أيـاديـك
اذا ذكـرت الصبـا حنت نـوازعـه ... نشوى ، لتـذكر عهـدا في مغـانيـك
ومـا رأيت جمـال العـين في حـدق ... الا تـذكـرت حسـنا في مآقيـك
ومـا حننت الـى العـاصي وجـيرتـه ... الا تفانيت شـوقـا مـن تفـانيـك
ولا تمنيت أن أحـظى بـراجعـة ... مـن الصبابـات الا في ملاهيـك
ولا عتبت علـى دهري وحاضـره ... الا تلطف اعتـابـا مناديـك
ولا سمعت غنـاء في مناسبـة ... الا ورن بسمعي صـوت حـاديـك
ومـا قصدت حمـاة الخير منتجعـا ... الا مـررت وفـاء في أراضيـك
ولا شكوت الهـوى الا وجـدت بـه ... وقـد يطيب لمثـلي أن يشـاكيـك
ولا يطيب لاربـاب الهـوى نغـم ... في الحـب والشـعر الا في تسـاقيك

• • • • • •

يـا حمص ان قيـل حموي أتى عجبـا ... بمـدح حمص فهـذا مـن دواعيـك

---

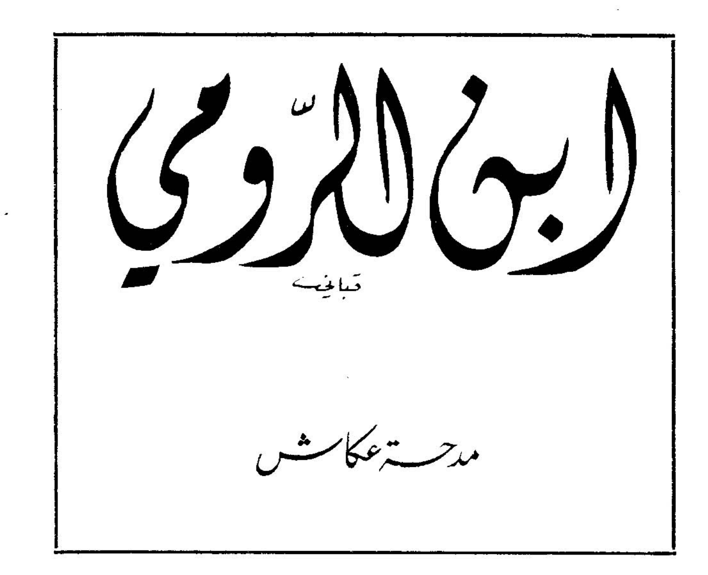
١ ـ الديك : هو ديك الجن الحمصي الشاعر المشهور ، وقد قتل غلامه وجاريته . واحرق جثتيهما وصنع من الرماد قدحا وصار يشرب فيه الخمر ويبكي عليهما من ندمه .

٢ ـ الشحرور : وحادثته مشهورة في حمص ، وما زال الحمصيون يتراوونها ، وبعض من شاهدها منهم على قيد الحياة فقد سقط الشحرور على الارض طربا اثناء سماعه غناء نجيب زين الدين ، وهو من اشهر المغنين واحلاهم صوتا وأطربهم على العود .

٣ ـ الشطر الثاني انتقال من الخبر الى المخاطبة .

٤ ـ الميماس : يقع غربي حمص يمر به العاصي وهـو مقصف جميل ومنطقة جميلة تكثر فيها الاشجار ويتخللهـا النهر وفيها المقاهي الجميلة الحلوة .

٥ ـ قالت : هنا لازمة .



(١)

في العصر الذي كانت فيه مدينة بغداد منار الدنيا ، يوم كانت تشع من حضارتها ومدنيتها على العالم ، كنت ترى فيها ألوف البشر يضطربون فيما تضطرب فيه كل أمة متمدنة متحضرة .

ولم يكن من العسير ان نفصل هذه الالوف المؤلفة من البشر الى فريقين ، فريق خصه الله بالحياة الناعمة المترفة يرفل في اثواب العز والرفاه . فأمير يجزل العطاء فيسرف فيه ارضاء لنفسه واشباعا لميوله ، وفقيه يملأ الدنيا بشروحه ومناظراته فيصبح حديث الناس ، وعالم أفنى عمره بالبحث والتنقيب والتأليف فاصبح موضع احترام الامراء واجلال الملوك ، وتاجر يسير تجارته الى بلاد الشام والفرس واليونان ، ويستورد السلع النادرة من الهند والصين والحبشة فينعم بالربح الوفير والعيش المترف . ولكن هذه الاعمال كلها لم تكن لتثني هذه الفئة من الناس عن كسب حظها من تذوق الفن ومزاولته .

فهذا شاعر يتسقط الناس أخباره وأشعاره فينقسمون فيه الى مؤيد ومنكر ولكل منهما رأيه الصائب وحجته القوية .

وهذا موسيقار عشق الناس ألحانه وهاموا بها ، وتلك جارية تقف على جسر بغداد تغني احدى مقطوعاتها فيخشى على الجسر أن يتداعى لكثرة الناس الذين ازدحموا لسماعها .

اما الفريق الثاني – وهو السواد الاعظم – فلم يكن حظه من هناءة العيش أقل من حظ الفريق الاول فمطالب الحياة مؤمنة ، وسبل العيش ممهدة لجميع الناس في وقت كانت فيه أموال الدنيا تساق الى بغداد .

الا أن هذا الفريق يمتاز عن الاول بجهله المطبق وسذاجته ، يتقبل كل ما ينقل اليه بنفس راضية مطمئنة تجد فيها الاساطير تربة صالحة لا يشوبها شك ولا تداخلها ريبة .

الى جانب هذا الخلاف القائم بين العلم والجهل ، كان هناك خلاف له اثره البين الظاهر في حياة ذلك العصر الذي نتكلم عنه – عصر الدولة العباسية – فقد انقسم الناس فيه شيعاً تعتز كل منها بمبادئها ، فهذا عربي يفخر بعروبته ويعتز بها مستهينا بغيره ساخراً منه يسعى الى الحط من كرامته ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وهذا شعوبي يفخر بنسبه ، ويعتز بآبائه وأجداده – وبخاصة اذا كانوا من الفرس – ويؤلف الكتب في مثالب العرب ، يعدد فيها كل مايستطيع أن يختلق لهم من نقائص وعيوب . الا أن هناك فريقاً من الناس بقي بعيداً عن هذا الخلاف ، ينظر اليه نظرة حياد لا تخلو من سخط ، متمسكا بقوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا انا جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم » معتمدا على قول النبي العربي الكريم : (لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى) .

ففي هذا الجو المضطرب ، وبين هذا الصراع القائم بين العلم والجهل ، والغنى والفقر ، والعربية والشعوبية ، وبين صراع اللهو والتقشف ، والمجون والزهد ، ولد أبو الحسن علي بن العباس الملقب بابن الرومي ، وكان ذلك عام ٢٢١ هجرية من عائلة ان لم تكن فقيرة فهي الى الفقر أقرب منها الى الغنى ، وهو

يوناني الاصل يرجع نسبه الى جده جريج او جورجيس كما يقول الرواة ، الا أنه انتسب بالولاء الى بني العباس فأصبح من مواليهم — وما أكثر الموالي في ذلك العصر — فعاش في كنفهم ومات مسموما سنة ٢٨٣ هجرية .

وكان ذلك لانه هجا القاسم بن عبد الله وزير المعتضد فدس له السم في الطعام وهو في مجلسه — بعد أن اصطلحا — فلما أحس بالسم نهض فقال له الوزير « الى أين ؟ » فقال : « الى المكان الذي بعثتني اليه » فقال له : «سلم على والدي» فأجابه ابن الرومي: « ما طريقي على النار » . وأتى منزله فأقام فيه أياماً ومات .

(٢)

انقسم الناس في ابن الرومي — كعادتهم في كل شاعر — الى قسمين ، فمنهم من نظر اليه نظرة حقد وبغض وأنكر عليه روائعه وحسناته ، ومنهم من اعترف له بفضله ونبوغه ، ولكنه لم ينظر اليه نظرة حب واجلال وانما نظر اليه نظرة شفقة ورحمة لان كثرة تشاؤم ابن الرومي وطيرته التي بلغت اقصاها جعلته موضع اشفاق الناس وعطفهم ، ولكن ابن الرومي كان في كلتا الحالتين متألما ناقماً على الحياة والأحياء لان الشفقة كثيراً ما تؤلم أكثر من الحقد ويكون لها أثرها في النفوس الشاعرة ، وخاصة في نفس شاعر دقيق الاحساس ، مرهف الشعور كابن الرومي .

ولعل هذا الاحساس الدقيق والشعور المرهف هما اللذان قادا الى ابن الرومي ذلك التشاؤم الذي لازمه طوال حياته حتى بلغ به درجة الجنون أو كاد .

ونحن لا نغالي اذا قلنا ان ابن الرومي لم ير الهناءة في يوم من أيام حياته . ولئن مر بساعات معدودة ذاق فيها حلاوة العيش في مجلس أمير أو على مائدة وزير ، فليست هذه الساعات العابرة الا ومضات تكشف له عن بؤسه وشقائه ، وتريه مقدار الاشياء التي حرمته الطبيعة منها ، فتذكي في نفسه ثورة النقمة والحقد وتثير في نفسه ما كمن فيها من آلام واحزان .

وليس غريبا بعد هذا ان تسيطر الطيرة والتشاؤم على ابن الرومي الذي ذاق طعم الحرمان ، وخبر الناس فلم ير منهم الا ما يؤلمه وينغص عليه عيشه . والانسان يتقبل الاوهام والاساطير بقدر ما تنطوي عليه نفسه من شعور بالحرمان وبقدر ما يسيطر عليه من يأس .

الا أنه قد غالى في تشاؤمه وطيرته ، حتى أصبح موضعا لعبث العابثين وتندر المتندرين .

هذا وليس من الصعوبة في شيء ، بعد اطالة النظر في شعر ابن الرومي وسيرته ، ان نلمح من خلال ذلك نفسية تختلف اختلافا ظاهرا عن نفسيات شعراء القرن الثالث الهجري كلهم . ولعل فقره وتشاؤمه وطيرته بالاضافة الى ما امتاز به من احساس دقيق وشعور مرهف ، هذه العوامل كلها كونت له هذه النفسية الشاذة فقد كان حاد المزاج ضعيف الاعصاب مضطرب النفس لا يستقر على حال . كره الناس — كما كرهوه — وساء ظنه بهم ونظر الى الدنيا بمنظار أسود ، فبرم بالحياة والاحياء وتهالك على ملذات الدنيا فحظي منها بالقليل وحرم الكثير . وقد أورثه هذا الاضطراب جبنا وخوفا كان له أثره الظاهر في حياته .

وأي جبن وخوف أكثر مما يصوره هو نفسه في قصيدته التي يمدح بها أحمد بن ثوابة والتي يقول في مطلعها :

دع اللوم ان اللوم عون النوائب
ولا تتجاوز فيه حد المعاتب
فما كل من حط الرحال بمخفق
ولا كل من شد الرحال بكاسب

فنحن نراه يستسلم للمقادير ويؤمن بالحظوظ ، يأبى لوم اللائمين وينكر على الناس سعيهم ، معتقدا أن الارزاق بمقدار وان لكل حي نصيبه منها جد أم توانى وسعى أم قعد عن طلب الرزق . واذا سرنا مع ابن الرومي في هذه القصيدة نراها على هذا المنوال ، وهي ان دلت على شيء فانما تدل على الجبن والجزع بعينه . قال :

اذاقتني الاسفار ما كرّه الغنى
الي" واغراني برفض المطالب
فاصبحت في الاثراء ازهد زاهد
وقد كنت في الاثراء ارغب راغب
حريصاً جباناً ، أشتهي ثم أنتهي
بلحظي جناب الرزق لحظ المراقب
فقدمت رجلا رغبة في رغيبة
وأخرت رجلا رهبة للمعاطب
اخاف على نفسي وارجو مفازها
واستار غيب الله دون العواقب
ألا من يريني غايتي قبل مذهبي ؟
ومن أين؟ والغايات بعد المذاهب

أفلا تثير فينا هذه الابيات الشفقة على ابن الرومي الذي يخاف على نفسه ويرجو مفازها كما يخاف استار الغيب ولننظر الى رقة هذا السؤال وجمال هذا الاعتراف بقوله :

الامن يريني غايتي قبل مذهبي ؟
ومن أين ؟ والغايات بعد المذاهب

ولكن البيت الثالث ماهو الا اعتراف صريح ، يقدم لنا ابن الرومي نفسه فيه ويجلو القناع عنها • فهو حريص على الدنيا يريد أن يأخذ ما استطاع منها وما يستطيع ، ولكنه جبان يخاف عاقبة الامور فينظر الى متع الدنيا نظرة المحروم فيزيد اضطراب نفسه وقلقها وتسود الدنيا في عينيه ، وتثور ثائرة النقمة في قلبه فتخرج على لسانه هجاء مقذعا طالما أرهب الناس به فخافوه

هذا ولو شئنا ان نورد الامثال التي تدلنا على قلقه لضاق عنها هذا البحث الموجز • ولنترك الآن ، هذه الشخصية التي كأن الله صاغها من أعصاب أنيّ لمستها اهتزت ، ولنبحث بعد ذلك في شعره علنا نصل الى شيء من هذه الروائع الخالدة التي خلفها دررا في جيد الادب العربي ، ولعلنا نرى من خلال شعره صورة اوضح لتلك النفس الشاعرة الحساسة الكامنة بين جوانحه •

(٣)

لقد اختلف المؤرخون في ثقافة ابن الرومي • فمنهم من قال انها عربية صرفة ، ومنهم من قال انها مزيج من العربية واليونانية لانه كان قريب العهد بها • ومن الناس من أضاف اليها اثرا من الثقافة الفارسية اخذه عن أمه الفارسية الاصل •

ونحن لا نستطيع الا أن نقر بأن ثقافته لم تكن عربية محضة ، ولو كانت كذلك لكان كغيره من شعراء القرن الثالث الهجري • فقد امتاز عن غيره من الشعراء بأسلوب كان أميل الى القصص منه الى باقي فنون الشعر • والقصص شيء في دماء اليونان ، فلما نجد أثرا من آثارهم خاليا منه •

وكذلك كان تفكيره يختلف عن تفكير سائر الشعراء ونظرته للاشياء تختلف عن نظرتهم اليها • وميزة اخرى انفرد بها دون شعراء عصره ، ولم يجاره بها الا أبو تمام ، هي انه يعتمد بشعره على العقل كما يقول الدكتور طه حسين • وهذا ليس معناه ان شعره لاخيال فيه ، فقد كان ابن الرومي واسع الخيال بعيد مدى التصور • الا أن هذا الخيال الواسع لم يكن غاية بل وسيلة يتذرع بها ليصل الى الفكرة التي يتقبلها العقل ويقرها المنطق •

وقد اشتهر أيضا بتوليد المعاني التي لم يسبقه اليها شاعر ، حتى عد من الأئمة في هذا المضمار • الا أن هذه المعاني التي كانت تنقاد اليه بسهولة، كثيرا ما كان يجد في أدائها جهدا وفي سبكها مشقة • وكثيرا ما كانت تستوعب الفكرة عنده عشرة أبيات أو اكثر ، بينما نرى أبا تمام لايحتاج لاكثر من بيت أو بيتين ليخرجها للناس أنيقة السبك محكمة الاداء ، ولقد أرجع الدكتور طه حسين هذه الصعوبة التي يجدها ابن الرومي في أداء الفكرة لسببين :

الاول : هو قلة ثقافته في اللغة العربية بالنسبة لغيره من شعراء عصره ، وهذا لاشك فيه لأنه وان أطال النظر في القرآن واخذ منه الكثير الا انه لم يعر مخلفات

الشعراء الذين سبقوه أو عاصروه اي اهتمام ، فلو أطال النظر في شعر المتقدمين ، أو لو كانت له حماسة كحماسة ابي تمام لاستطاع أن يجاريه بل ربما فاقه في ايجاز الابيات واحكام الاداء .

والسبب الثاني : — على رأي الدكتور — هو شك ابن الرومي في ثقافة الناس واستهانته بتفكيرهم وعقليتهم اذ كان يعتقد أن ليس من الناس من يستطع فهم أفكاره ومعانيه الا اذا جاء بها مفصلة بعيدة عن الايجاز الذي هو اقرب الى الاحاجي منه الى الشعر الصحيح .

ونحن نعتقد أن السبب الاول هو — وهووحده — اساس هذا الضعف في أداء الفكرة عند ابن الرومي . ودليل ذلك سهولة شعره وعدم متانة الفاظه . فهووان اعتنى بجمال اللفظ حينا ، فكثيرا ما ينحط لفظه الى لغة السوقة أحيانا . وكثيرا ما كان يطلق لسانه على سجيته ، يستعمل من الالفاظ مايشاء ، بل ما تشاء الفكرة . وهو لا يتورع عن ذكر الكلمات البعيدة عن الشعر والذوق الشعري ، وهو بعيد عن الصنعة الفنية — المستحبة أحيانا في الشعر — وان وجدنا أثراً ضئيلا لهذه الصنعةالفنية في شعره ، فما هي الاومضاتجاءت اليه طائعة دون ان يتعمد الاتيان بها . لذلك كان أصدق ما يقال في شعره ، انه كلام عادي معقودبالقوافي قال في وصف كأس :

وبديع من البدائع يسبي
كل عقل ويطبي كل طرف
دق في الحسن والملاحة حتى
ما يوفيه واصف حق وصف
كفم الحب في الملاحة أو اشفى
وان كان لا يناغي بحرف
تنفذ العين فيه حتى تراها
أخطأته من رقة المستشف
كهواء بلا هباء مشوب
بضياء ارقق بذاك وأصف
وسط القدر لم يكبر لجرع
متوال ولم يصغر لرشف
لا عجول على العقول جهول
بل حليم عنهن من غير ضعف
ما رأى الناظرون قدا وشكلا
فارسا مثله على بطن كف
فيه لوز معقرب عطفته
حكماء الغيوب احسن عطف

فهل نستطيع ان نجد كلمة في هذه القصيدةتحتاج الىمراجعة المعجم منأجلها ، وهل يعسر علينا فهم هذه القصيدة التي أراد أن يصف بها قدحا يسبي كل عقل ولا تمل العيون مشاهدته ، وهو اشبه ما يكون بفم الحبيب لولا انه يعوزه الكلام . ولننظر الآن الى جمال هذا البيت وسهولته :

تنفذ العين فيه حتى تراها
اخطأته من رقة المستشف

وما أظنأنصفاء هذا القدح يزيد علىصفاء هذا البيت ورقته . وأراد أن يعرفنا حجم هذا القدح فقال أنه وسط القدر لا صغير فيرشف منه ، ولا كبير فيصلح للجرع . ولننظر اليه كيف يشبه هذا القدح بفارس يمتطي صهوة الكف ، وهذا التشبيه ان لميكن فيه من شيء فأقل مافيه أنه الاول من نوعه .

الا أن ابن الرومي ، سواء طالت عبارته في أداء الفكرة أم قصرت ، وسواء سهل شعره أم صعب ، فقد كان يقلب الفكرة على جميع وجوهها ويأتيها من كل جانب فيقتلها فحصا وتمحيصا حتى لا يترك لغيره من الشعراء مطمعا .

واذا رجعنا الى قصيدته في الكأس ، فما عسانا أن نقول به ؟ بل هل ترك لنا شيئا لنقوله له زيادة عما قاله هو ؟ ومثل هذه القصيدة في شعره كثير قاليصف العنب الرازقي :

ورازقي مخطف الخصور
كأنه مخازن البلور

قد ضمنت مسكا الى الشطور
وفي الاعالي مـاء ورد جوري
لـم يبق منـه وهج الحرور
الا ضيـاء في ظـروف نـور
لـو انـه يبقى على الدهور
قـرط آذان الحسان الحـور
بـلا فريـد ولا شـذور
لـه مـذاق العسل المشهور
ونكهة المسك مـع الكافور
ورقـة المـاء على الصـدور
وبرد مس الخصـر المقـرور
باكره والطـير في الوكـور
وعـذر اللذات في البكـور
في فتيـة من ولـد المنصور
املأ للعـين مـن البـذور
حتى أتينـا خيسـة الناطور
قبل ارتفاع الشمس للـذرور
فانقض كالطاوي من الصقور
بطاعـة الراغب لا المجبـور
والحر عبد الحلب المشطور (١)
حتى أتانـا بضروع خـور
مملوءة من عسل محصور (٢)
والطـل مثـل اللؤلؤ المنثور
من نافـع فيها ومـن محدور
ثـم جلسنا مجلس المحبـور
على حفافي جـدول مشجور
أبيض مثـل المهرق المنشـور
أو مثل متن المنصل المشهور (٣)
ينساب مثل الحيـة المذعـور
بـين سماطي شجر مسطور
ناهيك للعنقـود من طهـور
فنيلت الاوطـار من سـرور
وكل مـا نقضي من الامـور
تعلة مـن يومنـا المنظـور
ومتعة من متـع الغرور

فنحن مهمـا فتشنا الآن في معجـم الاوصـاف والتشابيه لن نجد وصفا للعنب أو تشبيها لم يستعمله ابن الرومي في هذه القصيدة • وما عسانا أن نقول عن العنب بعد أن قـال عنه أنه مخطف الخصور كمخازن البلور التي امتلأ شطرها الاسفل بالمسك والاعلى بماء الورد ، واصابته أشعة الشمس المحرقة فتركته كأوعية شفافة ملأى بالنور ، ولو دام لهذه الاوعية صفاؤهـا على الايام ، ما علقت الا اقراطا في آذان الغيد الحسان وبعد أن يصفه لنا بهذا الوصف الرائع ينتقل بنـا الى طعمه فيقول : أن له مذاق العسل ، ونكهـة المسك ، ورقة الماء ولم يكتف بهذا ، بل أخذ يقص علينا كيف باكر الكرم مع فتية صباح الوجوه من ولـد المنصور وكان الطل منثورا فوق العناقيد مثل اللآلىء تهفو اليه القلوب وتشتاق منظره العيون، ويصف لنا كيف جلس بقرب الجدول الذي ينساب كالحيـة المذعورة بـين سماطين من الشجر ، كل ذلك باسلوب ناعم لا غموض فيه ولا ابهام ، يهون فهمـه ولا يستعصي على المـرء تصوره •

ولعل انتقال ابن الرومي من وصف العنب الرازقي الى وصف هذه الرحلة الممتعة ، هـو ولعه القوي في اطالة القصائد ، فقد أبى أن تنتهي هذه القصيدة بعدة أبيـات ، وقـد نراه في بعض الاحيان يطيل قصائده مضطرا لا مختارا ، لانه ـ كما رأينا ـ يصعب عليه أداء الفكرة ببيت أو بيتين ، لذلك قيل عنه أنه طويل النفس ، وربما زادت بعض قصائده أحيانا على مائتي بيت • الا أن هذه المطولات تتصف بصفة ان لم تكـن قد انفردت بها قصائد ابن الرومي فقد قـل من الشعر

ما يتصف بها ، هي هذه الوحدة التي يلتزمها في سبك قصائده وصياغتها • فالقصيدة عنده سلسلة أفكار رتيبة متناسقة لا نستطيع حذف بيت منها ولا تقديم بيت على آخر • ولو فعلنا ذلك لاختل نظامها وجاءت شوهاء يأباها السمع ولا يطرب لها القلب • ونرى أن كل بيت مانظم الا ليوضع في المكان الذي وضعه فيه ابن الرومي من القصيدة • قال يصف روضة :

ورياض تخايل الارض فيها
خيلاء الفتاة بالأبراد
ذات وشي تناسجته سوار
لبقات بحوكه وغواد
شكرت نعمة الولي على الوسمي
ثم العهاد بعد العهاد
فهي تثني على السماء ثناء
طيب النشر شائعا في البلاد
من نسيم كأن مسراه في الارواح
مسرى الارواح في الاجساد
حملت شكرها الرياح فأدت
ما تؤديه ألسن العواد
منظر معجب تحية ألف
ريحها ريح طيب الاولاد
تتداعى بها حمائم شتى
كالبواكي وكالقيان الشوادي
من مثان ممتعات قران
وفراد مفجعات وحاد
تتغنى القران منهن في الايك
وتبكي الفراد شدو الفراد

فلننظر الآن الى هذا التسلسل في الفكرة المتناسقة وهذه الصور التي يتلو بعضها بعضا بترتيب تطمئن اليه النفس ويرضاه الذوق السليم • ولنر كيف ينتقل بنا من وصف الارض التي تتخايل بهذا الروض كما تتخايل الحسناء بأثوابها الجدد، الى منظرها وهي تشكر المطر وتثني على السماء التي أرسلت هذا المطر اليها •

وبعد أن يصل الى درجة الابداع في العرض يقدم لنا منظر الوسمي الذي حاكه السحاب ابرادا لهذا الروض ، ويجعلنا نتحسس النسيم الطيب الريح ، ويسمعنا الباكيات من الحمائم والمغنيات ، الى آخر ما بهذه القصيدة من صور بديعة ومعان سامية تتجلى بها عبقرية ابن الرومي وتظهر بها سعة خياله التي نلمح لها أثرا ظاهرا في أكثر شعره • وقال يصف زاهدا :

بات يدعو الواحد الصمدا
في ظلام الليل منفردا
خادم لم تبق خدمته
منه لا روحا ولا جسدا
قد جفت عيناه غمضهما
والخلي القلب قد رقدا
في حشاه من مخافته
حرقات تلذع الكبدا
لو تراه وهو منتصب
مشعرا أجفانه السهدا
كلما مر الوعيد به
سح دمع العين فاطردا
ووهت أركانه جزعا
وارتقت انفاسه صعدا
قائل : « يا منتهى أملي
نجني مما أخاف غدا
أنا عبد عزني أملي
وكائن الموت قد وردا
وخطيئاتي التي سلفت
لست أحصي بعضها عددا
فلي الويل الطويل غدا
ليت عمري قبلها نفدا
ويح عيني ساء ما نظرت
ويح قلبي ساء ما اعتقدا

ليت عيني قبل نظرتها
كحلت أجفانها رمدا »

وهنا قد يأخذنا العجب لهذه القصيدة أن تكون لابن الرومي الذي تهالك على اللذات كما تهالك عليها مسلم بن الوليد ، وأولع بالخمرة كما أولع بها أبو نواس ، وفتن بالغواني كما فتن بهن البحتري • ولئن دلت هذه القصيدة على شيء فانما تدل على نفس تخلص الحب لله ، مؤمنة لا يداخلها في ايمانها شك ولا تدانيها ريبة • وهل يستطيع شاعر أن يقدم لنا الزهد بهذه الصورة الرهيبة ما لم يكن مر به أو بشيء منه • ولا يستبعد أن يكون ابن الرومي قد رجع الى نفسه في ذات يوم ، أو انها فترة اضطراب انسته الحياة وملذاتها التي كثيرا ما جد في طلبها واشتاقها وتهالك عليها • فهو يصور هذا العابد وقد ارخى عليه الليل سدوله يقف بين يدي ربه يدعوه بهذا السكون فيفنى في الدعاء، معترفا بمساوئه الكبيرة وخطاياه الكثيرة وقد فاضت عيناه بالدموع بعد أن قطعت هذا الليل الطويل ساهرة لا يغمض لها جفن، يخاف عذاب الآخرة فيسأل اللهَ النجاة ويؤمل فيجعل عفو الله وغفرانه منتهى أمله •

هذه نبذة من مميزات كثيرة جعلت ابن الرومي فردا في الشعراء ليس له ثان من نوعه في شاعريته ولا في أدائه، ويقول الاستاذ عباس محمود العقاد : (وليس هذا معناه أنه مفضل على جميع شعراء العرب من جميع الوجوه ولكن مزاياه غير مزاياهم وأدبه يرجع الى أصل من الفن غير الاصل الذي ترجع اليه آدابهم •)

الا أن هناك ميزة أخرى انفرد بها ابن الرومي دون شعراء عصره كلهم • فقد رأينا أنه اشتهر بتوليد المعاني حتى عد من الائمة في هذا المضمار ، ومعاني ابن الرومي كلها ؛ المطروق منها والمجدد تتصف بالحياة • فهو يمنح للاشياء الحياة والحركة ، ويمنحها الشعور والاحساس ويجعلها تخاطبه ويخاطبها كما يجعلها تأتي بأعمال لا يستطيع الاتيان بها الا العاقل المفكر •

ويستطرد الاستاذ العقاد في الكلام عن هذه الميزة فيقول : « ومن خصائص عبقرية شعر ابن الرومي عادة التشخيص ، والتشخيص هو أن يتصور المرء المعاني المجردة أشخاصا وأرواحا ينسب اليها ما ينسب الى الاحياء من الاعمال والاقوال كما كان اليونان يعملون في توليد الاساطير واختراع الربات والارباب لكل قوة من قوى الطبيعة وكل خصلة من خصال النفوس » •

ومن معانيه المبتكرة قوله :

واذا امرؤ مدح امرءا لنواله
وأطال فيه فقد أراد هجاءه

لو لم يقدر فيه بعد المستقى
عند الورود لما أطال رشاءه

وقوله :

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم
في الحادثات اذا دجون نجوم

منها معالم للهدى ومصابح
تجلو الدجى، والاخريات رجوم

وابن الرومي نفسه يقول عن هذين البيتين أنه ما سبقه الى هذا المعنى شاعر • ومن بدائع قوله في الشباب :

رأيت سواد الرأس واللهو تحته
كليل وحلم بات رائيه ينعم

فلما اضمحل الليل زال نعيمه
فلم يبق الا عهده المتوهم

أما معانيه التي يسبغ عليها الحياة والحركة فسنجد مثالها عند البحث في وصف ابن الرومي وخاصة في وصف الطبيعة •

مدحة عكاش

رسائل الاصدقاء

الى الطبيب الشاعر وجيه الباودي

بالاغصان تزهو الشجرة دلا وتيها • وتظل في شموخها طالما أن الاغصان تورق بالخضرة، لتعطي أكلها ثمارا جنية.

فالخضرة في الطبيعة – دليل النماء والعطاء – وكل البهجة والحبور في النماء والعطاء – فاما توقفا لا يبقى ثمة معنى لوجود .. وهل من حياة للشجرة بغير الاغصان المكسوة بالاوراق الخضراء ..

ونحن الاباء، كالشجرة، واولادنا الاغصان .. فلا والله، لا نسعد الا اذا كانوا سعداء، ولا نرضى الا اذا كانوا في عيشة راضية، ونحزن، حتى الموت، لما يصيبهم من بلاء، اي بلاء .. بل لا نهلع الا اذا اصابهم مكروه، اي مكروه . فكيف اذا تخطفهم الردى، على غير ميعاد، أمام الاسماع والابصار ..

ان كل الفواجع تهون ازاء هذا المشهد • انهم فلذات اكبادنا تمشي على الارض، ان كفت عن الحركة، توقفت نبضات الحياة في عروقنا، لنصبح جسدا بلا روح، ويلفنا الاسى الى ما لانهاية فيستحيل النور في أبصارنا الى ظلام قاتم، والى ليل دامس لا اول له ولا اخر •

هكذا تمثلت فجيعتك بابنك الشاب المهندس • لكأنه زهرة ذوت قبل الاوان، وقد ادركها الصقيع في الربيع فأهلكها . ووا أسفاه كان مقبلا على الدخول في – نادي الزوجية – فلم يمهله القدر ليكون من أعضائه، وأورثك الغم والكرب، اذا فلت من يديك، ليصبح اثرا بعد عين قبل ان يبدأ دورة امتداد شخصيتك في البذل والعطاء، ازاء امته ووطنه •

اني وقد جاوزت معرفتي بك نيفا واربعين عاما، لا اجد بلسما لجرحك النازف سوى الصبر • حسبك ان الدهر وهبك غاليا واسترده • فعزاء بك ثم بالبقية من انجالك •

ودم رمزا للعطاء في طبك وشعرك

مصياف – مصطفى الخش

١ – الى الاديب مدحة عكاش – دمشق

تكريم السلف على الخلف واجب وأمانة، ومحاولاتك المستمرة في رصد هذا التكريم خلال اعداد خاصة من المجلة الشهرية، دليل حب بلا حدود للرعيل الاول، وتقدير اعجاب بأعمالهم على خلاف التقييم فوق الساحة الادبية . واذا كانت أقدار الرجال صنيعة عبقريتهم المتفردة، واجتهادهم الدؤوب في رحلة العمر . فان ما يعلي هذا القدر ويجله احترام الاوفياء لهذا العطاء، ومن ثم نشره على الناس، وأحب أن أقول أن قطرنا العربي يغص بمنجزات هذا الرعيل عبر مستوى النشاط الانساني قديما وحديثا . واذا كانت أعداد « خير الدين الزركلي – عمر يحيى – عمر ابي ريشة » البداية الطيبة فالامل أن تتكرر الاعداد الخاصة وأن تتنوع . ومن يكرم الآخرين . لا محالة مكرم نفسه من خلال ذلك كله . ومنذ القديم يلازم الفقر والكفاف من أدركته حرفة الادب ونار المعرفة . ولكنها الطريق الاقرب، فأكرم بها من طريق يا شاعر ندوة المأمون في مدينة النواعير في العقد الرابع من قرننا العشرين .

٢ – الى الشاعر عدنان مردم بك – دمشق

أمس أنهيت مسرحيتك الاخيرة « دير ياسين » وهي العاشرة في سلسلة أعمالك الدرامية، واذا كانت الجريمة النكراء وقد دبرها الارهابي مناحيم بيغن وعصابته لغاية طرد السكان العرب من ديارهم، فان صورتها المأساوية تتجسد باهتة في حدث المسرحية ومواقف شخصياتك ولا أقول أن حبكة المسرحية ضعيفة في خلق التلاحم الانفعالي بين الحدث والموقف خلال مشاهد المسرحية، ولا أكتمك احساسي وأنا أقرأها أني شعرت بجو مسرحيات أحمد شوقي التي كتبها قبل نصف قرن من الزمان، ومثل هذه المسافة الزمنية يجب ألا تكون في هذا العمل

الدرامي الشعري المعاصر . بعدما وضحت معالمه في حاضرنا وتوضحت اساليبه وأفضليات الدراما الشعرية ان شخصيات المسرحية بلا ملامح انسانية واقعية، وهي لا تتفاعل بحركتها مع الحدث الذي بنيت على أساسه الحبكة ، ولقد اجتهدت طويلا في معرفة « الرجل الضرير » ودوره فلم أوفق الى قصدك من خلال ما يقول عبر المشاهد التي حضرها .

ولقد أحسست بجهدك فينظم الشعر خلالالمشاهد والفصول ، وقد غلبك هذا الجهد على ادامة التوازن بين الحدث والشخصية في الموقف الذي رتبته . فكان الايقاع أقوى والقافية أطرب ، ولذلك حفل شعرك بالغريب من الكلمات التي شرحتها بالهوامش ، ولكن المثابرة على العمل الدرامي الشعري فيهذه الايام جديرة بالاعجاب والتقدير ، فشعرنا العربي غنائي بتراثه الضخم وسلطانه القوي .

٣ ــ الى الشاعر البير أديب ــ بيروت

سعدت بعودة الاديب الغراء الى قارئها العربي مع مطلع العام الجديد ، بعد غياب قسري طويل ، وسعدت أكثر بالرهبنة الصافيةوالهمة القوية التيرفدتالاديب بكل جديد ومفيد ، وكانت سنوات المحنة . امتحان ذلك كله ، وقد مرت ثقيلة الخطى في مدار الزمان ولكن الارادة لبناءة أقوى من رهاق المحن ، وثقل الخطى ، ومكايد الفتن فكنت الشاعر الحق الذي لم يبرح عشه رغم شتاء الاحداث ورعود الانواء ، وكنت الصوتالقادم من عمق البرية العربية ، يرثي همجية الانسان وغلواء الادعاء في القرن العشرين .

أنت وفيروز والسنديان في ليلة المحنة أصدقاء الربيع الآتي ، ومع عودة الاديب الينا ، وعودة الامن الى الربوع الخضراء بشارة العطاء وقد أعطيت وضحيت من أجل الكلمة الصادقة المسؤولة في غيهب الدجلالرخيص والرياء الاحمق.وقد تعرت النفوس من ورقة التوت .

وفقك الله ورعاك على الطريق الذي سلكت منذ ثلاثين عاما ونيف ، وأرخى عليك ثوب الصحة والعافية وغمرك الحلم والاناة في مجالدة الايام .

دمشق ــ عبد الكريم دندي

الاديب الكبير والصديقالصدوقالاستاذ عيسىفتوح

برقيتك المطولة، دموعك الصادقة، حديثك الفياض نبل انسان القيم ، وانسان المثل ولحن من الحان الوفاء لم تكن في كلامك ناقدا فحسب ، بل كنت خصوبة الالم الكبير في أرضي المعذبة ، ومنابع الحزن في عيون الشمس كنت أحس كلماتك تنطبع في قلبي سطور عزاء ، وتتحرك على الورق روحا صافيا عذبا . أشكرك من الاعماق ، لا على ما كتبت ، بل على الفكرة نفسها ، فكرة الاهتمام الوفي بزميلة لك ، وشاعرة سكبت قلبها على الورق . ان انصبابك على شعر الامومة في ديواني « سارقة المعبد » كان مناسبة الحزن الكبير « لشاعرة الاحزان والآلام » .

لقد وصلتني مجلة « الاخاء » وفيها مقالك الذينشر في مجلة « صوت المعلمين » . أشكر لك المشاركة ، وأنت القريب ــ ابن البلد . أحس انني عاجزة أمام الوفاء الذي لقيته منكم جميعا ، حتى منالاذاعات العالمية ، مونتكارلو والعربية ، الكويت بلدي ، ذكرت في برنامج الاسرة فقط كلمة عزاء بموت وحيدي « عمار » ومع ذلك أشكرها .

أما ماأكتب اليوم عن عمار ، يا أستاذ عيسى ، فاني أبوح لك بسر عميق ، احس بأن ما أكتبه اليوم سيترجم الى لغات العالم ، ليصبح في صدور الامهات ، معاني الامومة الخالدة .

أتمنى أن نلتقي في اللاذقية ، ضيفا عزيزا في ربوعنا ولك من شاعرة الوفاء أسمى آيات الود والتقدير .

الشاعرة هند هارون